٨ قروش

كتابي



كوخ العم توم

(مأساة الأبيض والأسود!)

وكتب أخرى

حلمي مراد

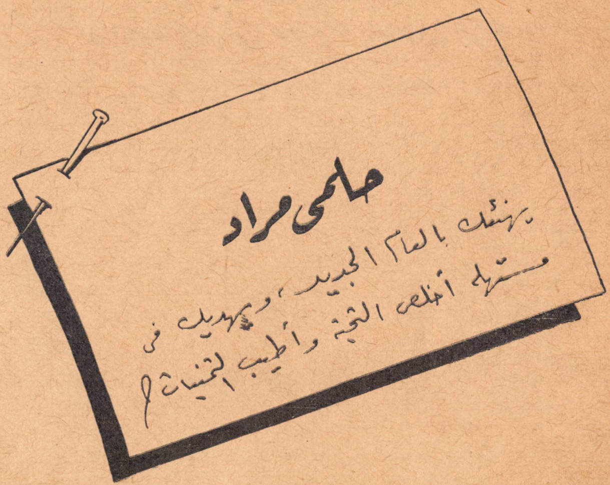
كتابي

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر اول كل شهر
صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الثالث والعشرون (السنة الثانية) : ينـــاير ١٩٥٤
الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل
الادارة : عمارة الجندول ، ١٤ شارع فؤاد الاول بالقاهرة
تليفون ٦٥٦٠٨


حلمي مراد
يهنئك بالعام الجديد ، ويهديك في
مستهله أخلص التحية وأطيب التمنيات !

عزيزى القارىء ٠٠٠

◆ تواترت فى الاسابيع الاخيرة على الرأى العام العالمى برقيات مفجعة عن المظالم القاسية التى يتعرض لها فى المستعمرات الافريقية اخوة لنا فى الانسانية، لا يفرقهم عنا غير سواد بشرتهم – وسواد قلوب جلاديهم ! – فرأيت أن أقدم لك بهذه المناسبة القصة الانسانية الكبرى « كوخ العم توم » التى كان لها أكبر الفضل فى تحرير العبيد والغاء نظام الرقيق الشائن ، منذ قرابة المائة عام ٠٠ وأحسبك لن تملك نفسك بعد مطالعة هذه القصة من أن تتساءل ، كما تساءلت : ترى هل يتقدم العالم تقدما يذكر ، فى فهمه للحق والعدل والخير ، وفى اعترافه « الفعلى » بحقوق الانسان التى يتشدق بها على الورق ٠٠ أم أن تقدمه قاصر على العلم والاختراع ومظاهر الحضارة الزائفة ؟

وهل يشفع لهذا العالم الذى نعيش فيه أنه اخترع لنا الراديو والتلفزيون ، والرادار ، والشاشة البانورامية ، والسينماسكوب ٠٠ بحيث ينسينا ذلك هذه المظالم البشعة التى ترتكبها الدول الكبرى نفسها – صاحبة هذه الاختراعات ! – فى حق السود من بنى « الانسان » فى كينيا ، وجيانا ، وبلاد الماو ماو ، بل وفى اتحاد جنوب افريقيا حيث صدر منذ أيام قرار بمنع اختلاط الطلبة البيض والسود فى المدارس !٠٠ وما لنا نذهب بعيدا وهذه « وشنطن » و « نيويورك » ذاتهما ، ما يزال يفرق فيهما بين الانسان الابيض والاسود تفريقا ظالما يتنافى مع أبسط مبادىء العدل والرحمة ، وما تزال توجد فيهما مطاعم وفنادق وملاه – بل وجامعات ! – يحرم على السود أن تطأها أقدامهم !؟

ان الغاء نظام الرقيق ، بعد أقل من عشر سنوات من نشر قصة « كوخ العم توم » التى هزت الضمير العالمى هزة مروعة ، لم يقض مع الاسف الشديد على مأساة الابيض والاسود ، وعلى سياسة اضطهاد السود ، بشقيها : سواء اضطهادهم من جانب المستعمرين ، كما يحدث فى أفريقيا وآسيا ، أو اضطهادهم من جانب مواطنيهم أنفسهم كما هو الحال فى أمريكا !

فهل لنا أن نتوجه الى الله – فى مستهل هذا العام الجديد – آملين أن يتدارك برحمته المضطهدين من جميع الاجناس والطبقات ، فى كافة أنحاء هذا العالم التعس ٠٠ ويوقظ ضمير البشرية من نومة أهل الكهف ؟

حلمى مراد

الزوجة التى يفضلها الرجل !

أرسل قبل يوم ٥ يناير الحالى رأيك فى هذا الاستفتاء المنشورة تفصيلاته فى « كتابى » السابق ، تساهم فى حل مشكلة اجتماعية هامة تحير الشباب من الجنسين

الرد الفائز سينشر فى « كتابى » القادم ، ويمنح صاحبه جائزة مالية قدرها خمسة جنيهات

كتابى

اعداد نفدت

كتابى الاول :	« خطايا الحب »	وكتب	اخرى	مارس ١٩٥٢
كتابى الثانى :	« قلب عذراء »	«	«	ابريل «
كتابى الثالث :	« الهاربة من الجنة »	«	«	مايو «
كتابى الرابع :	« حواء الجديدة »	«	«	يونية «
كتابى السادس :	« جريمة حب »	«	«	اغسطس «

أعداد توجد نسخ منها بالادارة

كتابى الخامس «**أحدب نوتردام**» ، والسابع «**عشيقة نابليون**» ، والثامن «**مذكرات كيوبيد**» ، والتاسع «**صنم تحطم**» ، والعاشر «**حديقة الله**» ، والحادى عشر «**عندما تحقد المرأة**» ، والثانى عشر «**لعبة الحب والموت**» ، والثالث عشر «**توبة خاطئة**» ، والرابع عشر «**ايها الربيع ترفق**» ، والخامس عشر «**الشيطان على الارض**» ، والسادس عشر «**ليدى هاملتون**» ،والسابع عشر «**الارملة المرحة**» والثامن عشر «**حياة جورج صاند**» ، والتاسع عشر «**حياة سارة برنار**» ، والعشرون « **رباعيات عمر الخيام** » ، والحادى والعشرون « **حياة بيتهوفن** » ، والثانى والعشرون « **حياة موسولينى** »

◆ وتطلب من صاحب كتابى ١٤ شارع فؤاد الاول بالقاهرة (عمارة الجندول)، وثمن كل عدد ١٠ قروش خالص اجر البريد (المسجل) ما عدا الاعداد ١٣ ، و١٦ ، وثمن كل منهما بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، والعدد العشرون وثمنه عشرون قرشا (تحديدا للمطلبات نظرا لوشك نفاده وعدم امكان اعادة طبعه)

◆ ملحوظة : ترسل القيمة فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد MONEY ORDER ، ولا تقبل العملة الاجنبية او أذونات البريد الخارجية . وتحرر الأذونات والشيكات باسم صاحب المجلة شخصيا .

الاشـــتراكات

◆ وتشمل ضمنا الاعداد الممتازة ايضا ـ وترسـل جميع الاعداد الى المشتركين : فى مصر والسودان بالبريد المسجل ، وفى الخارج بالطائرة

◆ قيمة الاشتراك فى مصر والسودان : عن سنة (١٢ عددا) : ١٠٠ قرش ، وعن نصف سنة (٦ أعداد) ٥٥ قرشا ـ فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والحجاز والاردن .. الخ) ترسل القيمة بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد فى كل بلد MONEY ORDER وتحتسب القيمة بما يوازى ١١٠ قروش (عن سنة) و٦٠ قرشا (عن نصف سنة) ـ أو تدفع قيمة الاشتراك الى مكاتب شركة فرج الله للمطبوعات في بيروت وفي بغداد (بشارع السنك ، بغداد)



قصة للمحرر
ممصرة عن جي دي موباسان

اليقظة.. من حلم!

◆ **خلال** السنوات الثلاث التى انقضت منذ زواجها ، لم تبرح « صفية » يوما كفر الدوار ، حيث يعمل زوجها فى أحد مصانع النسيج بها ، وحيث تعيش معه فى بيت صغير خارج البلدة ، حياة هادئة سعيدة لا ينغصها غير اشتياق الزوجين الى طفل يؤنس وحدتهما ، ويشيع البهجة فى دنياهما الساكنة الرتيبة ..

كان عبد السميع افندى يكبر زوجته الغضة بنحو عشرين عاما ، لكنه كان طيب القلب ، رضى الخلق والطباع ، عطوفا عليها .. فأحبته صفية وأخلصت له ، ولم يطف برأسها أى خاطر خبيث نحو غيره من الرجال !

وكانت أمها تأتى من بلدتها « الواسطى » كل صيف لتقضى معها شهرا أو شهرين ، فتلقى من ترحيب الزوج وكرم ضيافته ما يطمئنها على حسن توفيق ابنتها فى زيجتها وطيب حظها من الحياة ..

لكن الابنة لم تلبث أن أصيبت ببرد شديد ، خشى معه الاطباء على صحتها من رطوبة المنطقة التى تعيش فيها ، فنصحوا لها بقضاء الشتاء التالى فى مشتى من المشاتى الجافة ، وكان لها خالة تعيش فى مصر الجديدة ، فسمح لها زوجها بأن تسافر كى تقضى عندها أشهر الشتاء الباردة ، وسافرت ..

✽

◆ **مضت** أسابيع وصفية تفكر فى البيت الذى تركته ، والجو الهادىء الذى اعتادته وأحبته ، والزوج الذى ألفت عشرته ، وقطع الاثاث التى صارت جزءا من حياتها .. **لكنها لم تلبث أن استمرأت متع حياتها الجديدة وأحبت ملاهى القاهرة ونزهاتها**

وحفلاتها ومغانى هذا العالم الصاخب الذى فتحت خالتها عينيها عليه فجأة، امعانا فى كرم الضيافة، فأصابها بما يشبه الدوار!

كانت حتى ذلك الحين لا تزال محتفظة بحياة الفتاة البريئة، تمشى مطرقة ، وتتكلم مجفلة ، وتنظر مشفقة ٠٠ فصارت جريئة القول والنظرة ، موفورة الحيوية والمرح ، متأهبة دوما للمسرات !

أحاط بها المعجبون من الرجال ، ونالت منهم التفاتا ملحوظا، فأعجبتها جلساتهم وأحاديثهم ، وحركات اللياقة والتظرف التى كانوا يبدونها نحوها !٠٠ وزادها جرأة فى مخالطتهم وثوقها من نفسها ومن قدرتها على مقاومة خطرهم ، بعد ما نفرها من الحب ما أذاقها اياه منه زوجها ٠٠ كانت تتأفف اشمئزازا مما تتوارد به أحاديث الناس وهمساتهم عن تفريط فئة من النساء فى شرفهن واستسلامهن الشائن لرجال غرباء عنهن ، وكانت تسأل نفسها مستغربة : « أما يكفى المرأة اضطرارها للاستسلام لرغبات زوجها الشرعى حتى تجلب على نفسها « المضايقات » من الخارج » ؟٠٠ انها كانت لتحب زوجها أكثر وأكثر لو عاشا معا كصديقين فقط ، وقصرا متعتهما على القبلات البريئة التى تشبع الروح لا الجسد ٠٠

ورغم ذلك فقد لذ لها أن تتلقى من الرجال عبارات الاطراء والاعجاب ، ونظرات الاشتهاء السافر - الذى لم تكن تبادلهم اياه بحال ! - وهمسات المصارحة بالحب التى كان الرجال يلقون بها فى أذنها أثناء الانتقال من غرفة المائدة الى الصالون بعد الانتهاء من عشاء فاخر ، فى احدى المآدب أو الحفلات ٠

تلك الهمسات التى كانوا ينطقون بها فى صوت خفيض لا تكاد تتبينه ، والتى لم تكن برغم ذلك تلهب دمها أو تحرك قلبها ،

وانما كان أقصى ما تستمتع به منها ارضاء ميلها الخفى الى اللهو البرىء ، وايقاد شعلة البهجة والانشراح فى قلبها الانثوى ، وبريق النشوة والرضا فى عينيها ..

وسرعان ما أولعت بالخلوات الثنائية فى ساعة الغروب والغسق حين يرهف احساس الرجل ، فيتردد ، ويرتجف ، ثم يخر راكعا على ركبتيه ! .. **وكان أكثر ما يمتعها أن تلحظ أن مرافقها يحترق بنار رغبة مضطرمة لا تحركها هى أو تثير حساسيتها على الاطلاق ، بل تبقى لها سيطرتها التامة على نفسها ، التى تمكنها من أن تقول لا بهزة هادئة من رأسها .. وأن تسحب يدها من يد الرجل الذى معها ، أو تنهض فتضىء الانوار فى سكون ، وأن ترى الرجل الذى كان يهتز انفعالا عند قدميها ينهض مضطربا مغيظا على صوت خطوات الخادم أو الساقى !**

وكثيرا ما كانت تطلق ضحكة ساخرة ، تخمد الكلمات الملتهبة على الشفاه ، أو تنطق بعبارة قاسية تسقط على القلب المتقد كسيل من الماء المثلوج .. ثم تردف ذلك بنبرات من صوتها تكفى لان تدفع من يحبها حقا الى الانتحار !



وكان أكثر الرجال الحاحا فى حبها ومطاردتها اثنين ، بصفة خاصة ، هما فى طبيعتهما وأساليبهما الغرامية طرفا نقيض:

أحدهما - شفيق - من شباب القاهرة المستهتر العابث ، يتقن الملق والمداهنة ، والكلمات المعسولة ، والحركات اللبقة ذات التأثير الفعال على النساء ، ويعرف كيف يصبر ، وينتظر ، ثم يقتنص الفرصة المناسبة !٠٠ حتى لقد طار صيته في المجتمعات وتهامست النساء بأنباء غزواته الغرامية الموفقة ٠

أما الثانى - الاستاذ سامى - فكان رجلا خجولا ، يرتجف اذا اقترب منها ، ولا يقوى على مصارحتها بهواه المبرح ، وانما هو يتبعها فى كل مكان كظلها ، وينفس عن رغباته المكبوتة بالنظرات المتعثرة المفضوحة ٠٠ مما أغراها بأن تستغل عاطفته فى تسخيره لخدمتها كالعبد الامين والتابع الذليل ! لكنها لم تلبث بحكم ملازمته اياها أن اعتادت عشرته ، وأدمنت نظراته ونبراته وحركاته ، بل صار وجهه يطاردها أحيانا فى أحلامها ، بكل رقته ودماثته ، وتواضعه ، وحبه المضطرم ٠٠ فتصحو من نومها مشغولة الفكر به ، يتردد صوته فى سمعها ، وتحس قربه منها ٠٠



٠٠ حتى كانت ليلة حملها فيها النعاس على أجنحته الى مملكة الاحلام فرأت نفسها وحيدة معه فى حديقة وقد جلسا على الحشائش الندية ، وراح هو يلقى فى أذنيها بكلمات عذبة حلوة ، وهو يضغط يدها بين يديه ويلثمها كالعابد، وهي تحس

دفء جسمه وأنفاسه ، وتمشط شعره بأصابعها .. **وغلبها هواها على أمرها فأحست بأنها تحبه ، حبا هادئا عميقا ، وانتشت روحها ورقص قلبها حين جرؤ فأحاط خصرها بذراعه وجذبها اليه ، ثم قبل عينيها وخديها ـ دون أن تحاول المقاومة أو الفرار ـ وأخيرا التقت شفاهما .. فاستكانت له !**

*

◆ **وأفاقت** صفية من حلمها مذعورة .. لكنها حين التقت بسامى فى المرة التالية ، أحست بالدم يصعد الى وجنتيها ، وفيما هو يحدثها بحبه كانت ذاكرتها تسترجع صور حلمها الرهيب ، دون أن تقوى على ابعاده لحظة عن خيالها !.. وهكذا وجدت نفسها تحبه حبا أشعلته ذكرى ذلك الحلم اللعين، الذى كان أخشى ما تخشاه أن يتحقق!.. ولحظ هو هذا التغيير الذى طرأ عليها ، وأشار اليه فى حديثه مرة ، فوجدت نفسها تعترف له بكل شىء : بتفصيلات حلمها الملتهبة ! و .. لكنها أخذت عليه عهدا وانتزعت منه قسما بأن .. يحترمها !

وقد فعل .. وفى الاسابيع التالية التقيا مرارا ، وقضيا ساعات طويلة مترعة بالهوى والوجد ، كانت أرواحهما وحدها التى تتعانق فيها .. ثم يفترقان محمومين ، وقد أوشك الضعف أن يبرح بهما !.. وأحيانا كانت شفاههما تلتقى فيغيبان مغمضى العينين فى عناق طويل نشوان ، أدركت معه أن الفتى لن يقوى على الصمود طويلا ، والتزام حدود وعده وقسمه ، اللذين كانت ضنينة بهما أن ينكثا .. **فكتبت الى زوجها تنبئه بأنها تريد العودة اليه ، والى حياتهما الهادئة الرتيبة .. لكنه أجاب بخطاب رقيق ناشدها فيه بالحاح ألا تعود فى عنفوان الشتاء ، لكى لا تعرض صحتها لما حذرها**

منه الاطباء ٠٠ فأحنقها من زوجها انه لم يفهم ، ولم يستنتج حقيقة النضال الذى يصطرع فى قلبها !

*

◆ **وحل** شهر فبراير بطقسه اللطيف الاميل الى الدفء ، فلذ لسامى أن يدعو صفية أحيانا الى جولة حول (الجزيرة) فى سيارته ساعة الاصيل ٠٠ ورغم أنها صارت تحرص على عدم الانفراد معه فى خلوة فانها كانت تقبل دعوته هذه بين الحين والحين ٠٠

وفى ليلة دافئة من تلك الليالى ، مضت السيارة بهما بطيئة تتهادى ، وقد لف الظلام الضاحية فى غلالة شاعرية ، حتى بلغا بقعة هادئة يقل فيها المرور أو ينقطع ، فأوقف سيارته ، وتناول يدها بين راحتيه ، وهو يقترب بجسمه منها٠ فالتحمت شفاههما فى قبلات طويلة حارة، لم تكن تنقطع الا لتتصل٠٠ وان لم تخرج بها برغم ذلك عن طورها !

وحين عاد بها الى بيتها ، وودعها عند بابه ، شبه مغمى عليها ، كان هيامها به قد بلغ أقصى حدته ٠٠ كانت تسير كالشاردة ، المفتونة ، المسلوبة اللب ٠٠ أو كمن تعيش فى حلم، أو تمشى فى نوم !٠٠ وفى الداخل كان الفارس الثانى «شفيق» ينتظرها فى غرفة الاستقبال ، وقد أطفأ الانوار وقبع فى مقعد مريح ٠٠ فلما صافحته أدرك من رجفة يديها مبلغ الانفعال الذى تعانيه ، فبدأ يتكلم بلهجته الهامسة وصوته الرقيق ، ويلقى فى سمعها ووعيها المرهف كلماته المعسولة وغزله العذب الساحر٠٠

وأصغت اليه مأخوذة ، دون أن تجيب ٠٠ فقد كانت تفكر

فى الآخر ، وتخال أنها تصغى للآخر ، وانه ينحنى ليعانقها .. فلم تر سواه ، أو تحس لرجل غيره وجـودا على الارض .. وحين ارتعدت أذناها تحت وقر الكلمة المحببة « أحبك » شعرت أن الآخر هو الذى قالها !.. وهو الذى تناول يديها فأوسعهما لثما وتقبيلا !.. وهو الذى ضمها الى صدره كما فعل منذ حين فى السيارة !.. وهو بعينه الذى طبع قبلات ظافرة على شفتيها!

❊

.. **وحين** أفاقت، أطلقت صرخة فزع رهيبة !.. كان شفيق راكعا الى جوارها يشكرها ممتنا بحرارة ، وهو يغطى شعرها المشعث بقبلاته .. فصاحت بصوت محتبس :

– أخرج !.. أخرج !.. أخرج !

لم يفهم من مسلكها وتناقضها شـيئا ، فحاول أن يحيط خصرها بذراعه من جديد ، لكنها راغت منه صائحة فى غضب :

– انك وغد .. انى أكرهك .. أخرج !.. أخرج !

فنهض مدهوشا .. وخرج

❊

◆ **وفى** اليوم التالى عادت صفية الى كفر الدوار .. فلما رآها زوجها تدخل عليه دون توقع ، أنبها بشدة على مخاطرتها بصحتها .. فقالت له معتذرة :

– لم أستطع البقاء بعيدة عنك أكثر من ذلك ..

وحين لحظ اكتئابها وميلها الى الوجوم منذ عودتها سألها مستفسرا :

ـ ماذا بك ؟ .. انك تبدين حزينة فماذا دهاك ؟

فأجابته ساهمة ، وهى تنظر الى أفق مجهول :

ـ لا شىء .. سوى أن السعادة فى هذه الارض لا تواتينا الا فى .. الاحلام !

وأغلب الظن أن عبد السميع أفندى لم يفهم من عبارة زوجته شيئا !!

*

◆ **وفى** الصيف التالى ، أثناء رحلة الاستاذ سامى بسيارته الى الاسكندرية ، مارا بكفر الدوار ، عرج على منزل صديقته التى هجرته فجأة وسافرت ، دون ايضاح .. فاستقبلته بفتور لا يبين فيه أثر لعاطفة ! لقد تبينت أخيرا أنها لم تحبه يوما حبا حقيقيا .. لم تحبه الا فى حلم ، أيقظها منه شفيق فجأة .. بقسوة ووحشية !

ومنذ ذلك التاريخ ، لا يذكر سامى غرامه المفقود الا ويضرب كفا بكف ، محدثا نفسه : « حقا ان النساء مخلوقات شـاذة معقدة ، لا يمكن فهمها ! »

عندما ترفع الستار..



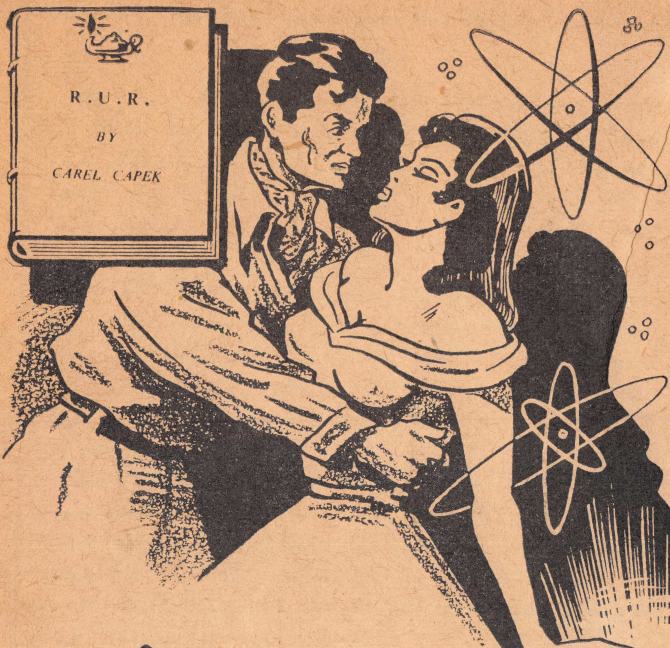
روائع المسرح العالمى
(التمثيلى .. والغنائى)

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى هذا الباب فى الاعداد الماضية من (كتابى) المسرحيات العالمية الآتية على التوالى :

خطايا الحب : لاوسكار وايلد
الحب الآثم : تولستوى
نزاهة الحكم : جوجول
سلاح المرأة : اريستوفان
فولبون : بن جونسون
جيوكندا : دانونزيو
كلام الناس : جوزيه اشيجاراى
مدرسة الفضائح : شيريدان
سيرانو دى برجراك : روستان
لعبة الحب والموت : رومان رولان
مروحة الليدى وندرمير : اوسكار وايلد
فاوست : جيته
اوديب الملك : سوفوكل
فى سبيل الحب : جون درايدن
وليم تل : شيللر
الام : مكسيم جوركى
الملك يلهو (ريجوليتو) : فيكتور هوجو
الذبيحة : أندريه أوبيه

واليوم أقدم لك فيما يلى هذه المسرحية الفذة التى تفتح أمام ذهنك آفاقا جديدة للتفكير والتأملات ، وتسفه حلما يتشدق العلماء بالسعى الى تحقيقه منذ عشرات السنين ..



الجنس الآلى!



للأديب التشيكوسلوفاكى الأشهر
كاريل كاپيك



المـؤلف

◆ « كاريل كابيك » ـ مؤلف هذه المسرحية ـ اديب مبدع ، ينتمى الى « الدولة التى تخسر دائما فى مباراة الشطرنج الدولية » ـ كما وصف بلاده تشيكوسلوفاكيا ! ـ فهى تخرج من كل حرب بالغرم دون الغنم .. وقد أثر ذلك فى نفسية أبنائها وادب أدبائها ـ وخاصة كاريل كابيك ـ فطبعه بطابع السخرية الرمزية ، التى هى ملجأ كل عبقرى يمنع من التعبير عن آرائه بصراحة !

وقد كان ((كابيك)) الى جانب نبوغه فى الكتابة للمسرح صحفيا ممتازا وكاتبا سياسيا وطنى النزعة ، ذا أسلوب ساخر يذكر بأسلوب فولتير فى التهكم المرير .. ومن أشهر مؤلفاته السياسية كتاب « احاديث مع مازاريك » ،وقد رسم فيه بدقة تدعو الى الاعجاب صورة الزعيم الذى جعل من الشعب التشيكوسلوفاكى المبعثر منذ قرون طويلة أمة حية متحدة !

وقد تزوج كابيك من الممثلة التشيكوسلوفاكية المشهورة « اولجا سينيفلوجوفا)) التى مثلت الكثير من الادوار الاولى فى رواياته واعانته بفنها على اظهار أفكاره لجمهور المعجبين به ، وقد كانت بدورها مؤلفة لعدة مسرحيات ذات حرارة وحيوية لفتت الانظار ..

ولا شك أن المسرح العالمى قد فقد كاتبا فذا من أعظم كتابه بوفاة كاريل كابيك يوم عيد الميلاد من عام ١٩٣٨ ـ وكان فى الثامنة والاربعين ـ بعد مرض طويل عانى منه آلاما مبرحة ..

◆ ومسرحية كابيك ((الجنس الآلى)) التى أقدمها لك فيما يلى هى احدى مسرحياته الرائعة التى يصور فيها ـ بطريقة مقنعة ! ـ غباء الجنس البشرى وحماقته .. وقد مثلت بالفرنسية على مسرح الشانزيلزيه بباريس سنة ١٩٢٣ فرفعت مؤلفها الى مصاف كتاب المسرح العالميين !

ومن روائع كابيك الاخرى : « حياة الحشرات » ـ وهى تسخر من المجتمع الحديث ـ و « قضية ماكروبولوس » ، التى تعالج مشكلة طول العمر التى عالجها برنارد شو فى مسرحيته المعروفة ((العودة الى متوشالح)) .. أما فى غير مجال المسرحية التمثيلية فقد كتب كابيك ايضا عددا من القصص القصيرة الساخرة ، وروايتين طويلتين هما : ((كراكاتيت)) و ((صنع الانسان الحر)) .

- ١ -

◆ ترفع الستار عن الفصل الاول فاذا نحن فى « مؤسسة روسوم للانسان الآلى » فى احدى الجزر النائية ، وهى مؤسسة يصنع فيها الانسان « الميكانيكى » على نطاق واسع ، وتصدر آلاف منه الى كافة أنحاء العالم للتغلب على أزمة قلة أو غلاء الايدى العاملة ٠٠!

ونرى مدير المؤسسة ـ البشرى ـ « هارى دومين » يملى بعض الخطابات على سكرتيرته الميكانيكية « سولا » ، فتنقر على الآلة الكاتبة ما يملى عليها !٠٠ ثم يدخل « ماريوس » ـ الآلى أيضا ـ فيعلن قدوم « هيلينا جلورى » ابنة رئيس المؤسسة ، وقد جاءت خصيصا من أقصى البلاد الى الجزيرة كى ترى بنفسها كيفية انتاج هذه المخلوقات الغريبة شبه البشرية:

دومين : ان هذا مخالف للوائح كما تعلمين ، ولكن نظرا لكونك ابنة الرئيس فسنخالف التعليمات لاول مرة ونسمح لك بالقيام بجولة فى أنحاء المصنع ٠٠

هيلينا : أشكرك

دومين : ولكن أحسبك تتوقين الى سماع قصة الاختراع أولا؟

هيلينا : طبعا ٠٠

دومين : حسنا ٠٠ لقد بدأت القصة فى سنة ١٩٢٠ ، حين جاء العالم الكبير « روسوم » الى هذه الجزيرة لاجراء تجارب على النباتات البحرية والحيوانات ٠٠ فلما حلت سنة ١٩٣٢ كان قد وفق الى سر خلق الكائنات الحية ، وقد حاول فى البداية تجربة الاختراع فى انتاج كلب صناعى ، فجاء المخلوق أشبه بعجل بشع شائه الخلقة ٠٠ لكنه لم ييأس بل والى تجاربه حتى نجح أخيرا فى صنع الانسان ٠٠

هيلينا : يا له من عبقرى ٠٠!

دومين : نعم ، ولكنه عبقرى مجنون ٠٠ لقد أراد أن يصبح

بديلا لله .. أن يثبت أنه لم تعد ضرورة لوجود آله ، وأن الدنيا تستطيع أن تمضى قدما بدونه .. لقد كفر بخالقه كما ترين ، وبالاختصار فانه .. لكنى أخشى أن أكون قد ضايقتك بحديثى

هيلينا : مطلقا .. بل امض فى قصتك الشائقة

دومين : حسنا .. ثم مات الرجل ، فخلفه ابنه .. الذى لم يكن عالما ولا فيلسوفا بقدر ما كان رجل أعمال ، فوجه همه الى انتاج الانسان الآلى بالصورة التى توافق الاغراض التجارية.. وهكذا استبعد منه كافة الكماليات غير الضرورية ـ كالعواطف والمبادىء والمثل العليا ـ واكتفى بانتاج آلات حية موفورة الذكاء، ولكن بلا روح ..

هيلينا : اذن فكل هذه المخلوقات متماثلة ؟

دومين : كلا ، فنحن نصنع منها أصنافا مختلفة ، بأسعار مختلفة ، فمنها ما يعد للاعمال اليدوية الوضيعة ، وهـؤلاء يصنعون من خامات رخيصة وبكميات كبيرة .. ومنها الطبقات النافعة الذكية التى يصنع أفرادها بحيث يعيشـون عشرين عاما ، مثل سكرتيرتى سولا . (الى سولا) سـولا .. دعى الآنسة هيلينا تفحصك

سولا : حسنا يا سيدى ..

هيلينا : ولكن سولا .. بشر !؟

سولا : بل أنا آلة يا آنستى ..

هيلينا : لست أصدق ..

دومين : اذن فسأقنعك (يدق الجرس لتابعـه ماريوس) ماريوس ، خذ سولا الى غرفة التشريح وقل لهم أن يشرحوها فورا ..

هيلينا : (مذعورة) أو تنوى قتلها ؟

دومين : الآلات لا تقتل .. بل تحل !

هيلينا : لا تخافى يا سولا ، فلن أدعهم يمسونك بسوء ..

سولا : لست خائفة ، فالمخلوقات الآلية لا تعرف الخوف !

◆ **وتكتشف** هيلينا أن الكائنات الآلية لا تتشبث بالحياة ولا تخشى الموت ، ورغم ذلك فهى فى الظاهر شديدة الشبه بالبشر الى حد تعجز معه الزائرة عن التمييز بينهما !٠٠ وحين تلتقى بمساعدى دومين البشريين ـ الدكتور « جول » العالم الفسيولوجى ، والدكتور « هالميير » العالم النفسانى ، ومستر « فابرى » المهندس ، والكيميائى « ألكويست » ، ومدير قسم الاعلان « بوزمان » ـ تحسبهم فى البداية من الجنس الآلى فتسألهم :

هيلينا : ألا تضايقكم الطريقة التى يعاملونكم بها ؟

فابرى : الطريقة التى يعاملنا بها من ؟

هيلينا : البشر الذين يستغلونكم ٠٠ لا تخشوا الافصاح فهذا هو السبب الذى من أجله حضرت الى هنا ، بصفتى مندوبة عن « هيئة الرفق بالجنس الآلى » التى يبلغ عدد أعضائها مائتى ألف ، كلهم فى صفكم ، على استعداد لانقاذكم !

دومين : أيها الزملاء ، أخشى أن تكون الآنسة هيلينا قد حسبتكم من الآليين !

◆ **وحين** تعرف هيلينا أنهم بشر تظل مصرة على انقاذ الجنس الآلى ، فيشرح لها دومين كيف انهم غير قابلين للانقاذ وأنهم لا يفهمون المشاعر النفسية والروحية وانما خلقوا للعمل فقط، بدلا من العمال ذوى الاجور الباهظة ٠٠ ثم يضيف مدير المصنع أن الشعور الوحيد الذى ينتاب « آلاته » أحيانا هو نوبة كنوبات « الصرع » تجعلهم يتوقفون عن الحركة ويصرون على أسنانهم بقوة ، وحينئذ يتحتم اعادتهم الى المصنع لاصلاح هذا الخلل « الميكانيكى » ٠٠

هيلينا : انه ليس خللا ميكانيكيا ٠٠ انه اختلاجة الروح فيهم !

فابرى : هراء ٠٠ فهم بلا روح

هيلينا : ولم لا تخلقون لهم روحا ؟
دكتور جول : هذا ليس فى مقدورنا ٠٠
فابرى : بل انه ليس من مصلحتنا فهو يزيد نفقات الانتاج ٠٠

- ٢ -

◆ **فاذا** كان الفصل الثانى فقد ذهب مساعدو دومين لطهى الغداء ، العمل الذى يعجز عنه الآليون بحكم كونهم مجردين من حاسة الذوق التى تمكنهم من اتقــان الاطعمة ٠٠ وبقى دومين وهيلينا وحدهما :

هيلينا : لقد أردت أن أسألك سؤالا ٠٠
دومين : وأنا أريد أن أوجه اليك سؤالا بدورى ٠٠ ولكن ابدئى أنت أولا
هيلينا : لعله سخف منى ، ولكن ٠٠ لماذا اذن تصنعون اناثا من هذه المخلوقات ما دام ٠٠ ما دمن ٠٠
دومين : ما دمن مجردات من غريزة الجنس ؟
هيلينا : نعم ٠٠
دومين : السبب هو حاجة « السوق » اليهن ، فقد اعتــاد الناس أن توكل أعمال البيع والخدمة والسكرتارية والاختزال وغيرها الى نساء ٠٠
هيلينا : وهل لا يحس الآليون نحو نسائهم ٠٠ بالحب ؟
دومين : كلا ٠٠ بتاتا !
هيلينا : أوه ، هذا فظيع ٠٠ ولكن ، ما هو السؤال الذى أردت أن توجهه الى ؟
دومين : أردت أن أسألك : هل تتزوجيننى ؟
هيلينا : أو جننت يا مستر دومين ؟
دومين : الانسان « البشرى » فى حاجة الى شىء من الجنون أحيانا ٠٠ وهذا أمتع ما فيه !
هيلينا : لكننا لم نكد نتعارف ٠٠؟

دومين : سوف يكون أمامنا متسع من الوقت للتعارف بعد الزواج ٠٠

هيلينا : ولكن ٠٠ ولكن ، يا هارى

◆ **ويتعانقان** ٠٠ فى اللحظة التى يعود فيها المساعدون ليعلنوا أن الطعام قد أعد

دومين : هل أتممتم مهمتكم ؟

فابرى : نعم ٠٠

دومين : كذلك نحن ٠٠!

- ٣ -

◆ **فاذا** كان الفصل الثالث فنحن نرى دومين وهيلينا يتأهبان للاحتفال بالعيد العاشر لزواجهما !٠٠ ونفهم من حديثهما أن صناعة الجنس الآلى فى رواج ، وان كانت الاحوال فى الجزيرة ليست على ما يرام ٠٠ ذلك لان مرض الصرع قد تفشى بين الآليين وكثرت اصاباتهم بنوباته ٠٠ وفى كل مرة كانوا يحطمون آلات المصنع وأثاثه ٠٠ بل لقد بدأوا أخيرا يهددون حياة أسيادهم البشريين أنفسهم ، مما دعا دومين ومساعديه الى اعداد قارب مسلح ليفروا به من الجزيرة اذا دعا الامر وتحرجت الحالة ٠٠ لكن استفحال خطر الآليين لا يقتصر على الجزيرة بل يتعداها الى كافة أنحاء العالم حيث راج استخدامهم ، فعم تبعا لذلك شرهم !٠٠ ففى ميناء « هافر » ثارت جموعهم فذبحت تسعة آلاف نسمة ، وفى مدريد اثنىعشر ألفا ٠٠ وفى باريس ، ولندن ، ونيويورك ، وغيرها ٠٠ حتى بلغ ضحاياهم من البشر أكثر من سبعمائة ألف !

وليت الامر اقتصر على ذلك ، بل ان نسبة المواليد من البشر قد تضاءلت الى حد مزعج خلال الاسابيع الاخيرة ، نتيجة لتعميم استخدام النساء الآليات فى أوساط الرجال ، والرجال الآليين فى أوساط النساء ٠٠!

هيلينا : رباه ، لكم أنا خائفة يا هارى ٠٠ اغلق المصنع ولنرحل جميعا ٠٠

دومين : هذا عسير الآن يا عزيزتى

هيلينا : لماذا ؟

دومين : لان أفراد الجنس الآلى فى كافة أنحاء العالم قد اتحدوا وأعلنوا الحرب على الجنس البشرى ، فاستولوا على جميع المرافق الحيوية كالسفن والسكك الحديدية ومراكز التلغراف ومحطات الاذاعة وترسانات الاسلحة ٠٠ الخ ٠

هيلينا : اذن فهذا هو السبب فى عدم وصول سفن الى الجزيرة فى المدة الاخيرة ؟

دومين : نعم ٠٠ لكن الجنس الآلى لا يمكن أن ينتصر ٠٠ بل لا بد من أن يستعيد البشر سلطانهم عليهم ٠٠ ولا أخفى عليك انى أنتظر اليوم أنباء سارة ٠٠

هيلينا : ولماذا اليوم بالذات ؟

دومين : لانه موعد وصول سفينة البريد ، فاذا وصلت سالمة فهذا يعنى أن سفينة يقودها البشر قد استطاعت الافلات من الحصار الذى يضربه الآليون ٠٠ وفى هذه الحالة يحق لنا أن نأمل امكان الفرار من الجزيرة فى القارب المسلح الذى أعددناه ٠٠ نفر ونحمل سرنا معنا !

هيلينا : أى سر ؟

دومين : سر الطريقة التى اهتدى بها روسوم الى صناعة الانسان الآلى ٠٠ فمتى أدرك هؤلاء المتمردون عجزهم عن انتاج بنى جنسهم ، خروا لنا صاغرين كما كانوا !

دكتور جول (يدخل لاهثا) : لقد وصلت سفينة البريد ٠٠ وذهب فابرى لاستلام بريدنا ٠٠

◆ **ويحبس** الجميع أنفاسهم فى انتظار عودة فابرى ٠٠ وأخيرا يقبل حاملا معه — لا البريد — بل انذارا ثوريا من

الآليين ٠٠ فقد استولوا على السفينة وملأوها بشحنة من المنشورات الثورية جاء فيها : « الى أفراد الجنس الآلى فى كافة الانحاء : اقتلوا الجنس البشرى عن بكرة أبيه ، أبيدوه ابادة تامة !٠٠ لا تتركوا على قيد الحياة رجلا ولا امرأة ولا طفلا ٠٠ لا تنقذوا غير المصانع ، وهذه يجب أن تديروها لحسابكم بغير ابطاء ٠٠ وليعد كل منكم الى عمله فورا ، فالانتاج يجب ألا يتوقف ! »

دومين : فلنسرع الى ظهر الزورق المسلح ٠٠

◆ **لكن** الاوان كان قد فات ، واستولى الآليون على القارب المسلح ثم وجهوا مدافعه نحو الجزيرة ٠٠ وحاصروا البيت !

تسمع صفارة المصنع تطلق صفيرا خاصا ٠٠

دومين : يا آلهى ٠٠ انها اشارة الآليين المتفق عليها لبدء الهجوم !

ألكويست : لقد كانت جريمة لا تغتفر أن نصنع هذه المخلوقات ٠٠



دومين : بل كان عملا رائعا ٠٠ انى لست نادما عليه حتى فى هذه الساعة ، ساعتنا الاخيرة ٠٠ فقد كانت الحياة شاقة والعمل مرهقا قبل الاستعانة بهذا الجنس ٠٠

ألكويست : لكن روسوم لم يهدف باختراعه الى تحريرنا من عبودية العمل ، بل كان يبغى اشباع شهوة أفكاره الملحدة ٠٠

وابنه لم يعبأ الا بمضاعفة ثروته ٠٠ أما الآليون أنفسهم فلا يفكرون الا فى مصلحتهمَ الخاصة، وهى ابادة الجنس البشرى ٠٠!

هالمبير : هراء ٠٠ لا يمكن أن يباد الجنس البشرى بهـذه السهولة ٠٠

ألكويست : بل سوف يباد ٠٠ والخطأ خطأنا !

دكتور جول : انه خطأى وحدى ، فلقـد سعيت الى تحويل الآليين الى كائنات بشرية ٠٠ فعلت هذا سرا ٠٠ زودتهـم بالاحساس فبذرت فيهم بذور الالم والحنق والتمرد ٠٠

هيلينا : لقد فعل ذلك بناء على طلبى ٠٠ أنا التى رجوته أن يصنع للجنس الآلى أرواحا ٠٠ ظننت أنه كلما قوى الشبه بينهم وبيننا ازداد التفاهم بيننا توثقا وكفوا عن مقتنا

دومين : لا يستطيع أن يمقت الانسان أكثر من الانسان !

هيلينا : وهكذا نفنى نتيجة حماقتنا

بوزمان : نفنى ؟ انها كلمة مخيفة يا مدام هيلينا ٠٠ نحن لا نريد أن نفنى ، وأعتقد أنه ما تزال أمامنا فرصة للنجاة ٠٠

دومين : كيف ؟

بوزمان : نستطيع شراء حياتنا بمساومة زعماء الجنس الآلى على اعطائهم سر صناعة بنى جنسهم مقابل أن يتركونا نرحل سالمين ٠٠ ولا شك انهم سيرحبون بهذا العرض لان عـدم حصولهم على السر معناه فناء جنسهم بفنائهم ، بعد عشرين سنة على الاكثر ! فدعونى أحمل السر وأذهب لمفاوضتهم ٠٠

هيلينا (متهالكة) : لقد أحرقت ورقة السر !

دومين : هيلينا ، عزيزتى ، كيف فعلت هذا ؟

هيلينا : أردت أن أضع حدا للمصنع، ولهذا الاختراع اللعين. لم أطق أن أرى الجنس البشرى ينقرض وتحل محله آلات بلا أرواح ٠٠ هذا فظيع

دومين : لقد هلكنا ٠٠ فما من واحد فينا يستطيع أن يتذكر السر عن ظهر قلب

فابرى : لا فائدة منه الآن على أية حال ..

هالمبير : وداعا أيتها الحياة .. كم كنا سعداء بأننا بشر ، نحمل شعلة الحضارة من يد الى يد .. ومن جيل الى جيل

◆ **وفجأة** تنطفىء كل الانوار ، ويدوى صوت انفجار مروع، وتشتعل السماء بلون أحمر .. ويتدفق الآليون الى الغرفة من كل صوب ، فيقتلون من فى المكان واحدا واحدا ـ آخر سلالة البشر على الارض ـ ولا يبقون الا على الكيميائى « ألكويست » .. فانهم يريدونه أن يخدمهم ويعمل لحسابهم .. أن يكتشف سر صناعة الانسان الآلى !

وحين يتم القضاء على سكان الجزيرة يصعد زعيم الجنس الآلى الى الشرفة ويخطب فى أتباعه قائلا : « يا أفراد الجنس الآلى فى أنحاء العالم .. لقد انقرض البشر جميعا ، وبدأ عهد جديد .. عهد دولة الانسان الآلى .. فالى الامام سر ! »

ويسدل الستار على صوت آلاف الاقدام الثقيلة تتحرك فى خطوة منتظمة ..

- ٤ -

◆ **فاذا** كان الفصل الاخير رأينا ألكويست يجهد ذاكرته كى يكتشف السر المنشود ، ولكن دون جدوى .. ويقبل وفد من الآليين للتحدث معه :

الزعيم : ان أفراد الجنس الآلى يموتون بالتدريج، ولن تمضى سنوات حتى ننقرض جميعا .. فبح لنا بسر الحياة !

ألكويست : لقد عجزت عن تذكره

الزعيم : داوم على التجارب .. أجرها على أنابيب الاختبار .. أجرها علينا .. انها فرصتنا الوحيدة

ألكويست : حسنا ، كما تريدون .. تعال معى اذن الى غرفة التشريح

الزعيم (يتراجع) : أنا ؟٠٠ ولم تختارنى أنا بالذات ؟

ألكويست : أو تتردد ؟

الزعيم : كلا بالطبع ٠٠ (يتبعه الى غرفة التشريح، ولكن فى تردد ظاهر)

ألكويست : آه ، انه يخشى الموت ٠٠ انها أعراض الروح البشرية ٠٠ يا آلهى، لا تدع روح البشر تنتابهم !

◆ **ويغلبه** التعب من كثرة التجارب ، فينام ٠٠ ويدخل المكان اثنان من الجنس الآلى : رجل وامرأة ، يختلفان عن سائر أفراد الجنس فى خفوت صوتهما ، ونعومته ، واختلاجه ٠٠ وأحيانا تبدو فى لهجتهما رعشة كأصوات البشر !

هى (تتجه الى النافذة) : أنظر ٠٠

هو : ماذا ؟

هى : الشمس تشرق ٠٠ واسمع ، الطيور تغرد ٠٠ أليس هذا غريبا ، وجميلا ؟



هو : نعم ٠٠ وأنت أيضا ، غريبة ٠٠ وجميلة !

هى (تنظر الى نفسها فى المرآة): هل أنا جميلة ؟

هو (يتناول يدها) : أحس شعورا غريبا ٠٠ ان قلبى قد بدأ يخفق فجأة بسرعة وعنف٠٠ كما لوكان هناك شىء سيحدث!

هى: ماذا يمكن أن يحدث لنا؟ **(تقدم اليه زهرة)** أنظر الى نفسك **(ينظران الى المرآة ضاحكين)**

ألكويست (يستيقظ وينهض) : ضحك ؟ ماذا أسـمع ؟ **(يتناول الفتاة من ذراعها)** دعينى أراك يا فتاتى ٠٠ **(تجفل مبتعدة ، ويقف الفتى بينه وبينها !)**

هو : سيدى ، لا تخفها !

ألكويست : ضحك، وخجل، ورجولة !٠٠ يجب أن أختبرهما حالا ٠٠ خذها الى غرفة التشريح

هو : أرجوك يا سيدى٠٠ خذنى أنا بدلا منها٠٠ دعها تعيش!

هى : كلا ، بل دعه هو يعيش ٠٠ فلو مات لطلبت الموت أنا أيضا **(وتنخرط باكية ٠٠)**

ألكويست : انها تبكى !٠٠ أخيرا اسـتطاع الانسان الآلى أن يبكى !

هو : أيها الانسان ، لن أدعك تمسها ٠٠ لن تستطيع أن تقتل أحدا منا !

ألكويست : لماذا ؟

هو : لاننا نخص كلانا الآخر !

ألكويست (يكاد يبكى فرحا) : اذهب يا آدم ٠٠ امضى يا حواء ٠٠ الدنيا لكما !٠٠ حمـدا لله ٠٠ ان روح البشر لم تنقرض من الارض !

العبقرية .. كفاح

◆ **هل** العبقرية موهبة .. أم اجتهاد ؟

عندما كان عازف الكمان الاسباني المشهور « ساراسيت » في قمة مجده كتب عنه أحد النقاد مقالا وصفه فيه بأنه عبقري .. فلما قرأ الفنان الكبير ذلك المقال هز رأسه مستنكرا وقال :

– عبقري ! يا له من أحمق .. لقد قضيت سبعا وثلاثين سنة أتدرب على العزف أربعة عشر ساعة كل يوم، والآن يقول عني انني « عبقري » !.. ان الله قد وهب كل انسان موهبة ما ، سواء أكانت العقل الراجح ، أو الشخصية الجذابة ، أو الخيال الخصب ، أو القدرة على العمل اليدوي .. الخ .. ولكن أيا كانت موهبة الانسان فان واجبه يقتضيه أن ينميها بالمران الدائب والجهد المتواصل ، والا ظلت الموهبة مغمورة لا يعلم بها أو يستفيد منها أحد !

دستور العدالة الاجتماعية

◆ **يؤثر** عن «ابراهام لنكولن» محرر العبيد ، أنه وضع نصب عينيه ـ وطلب الى مواطنيه أن يضعوا نصب أعينهم دائما ـ هذا الدستور الرائع للعدالة الاجتماعية :

١ ـ انك لا تستطيع جلب الرخاء بالتنفير من التبذير

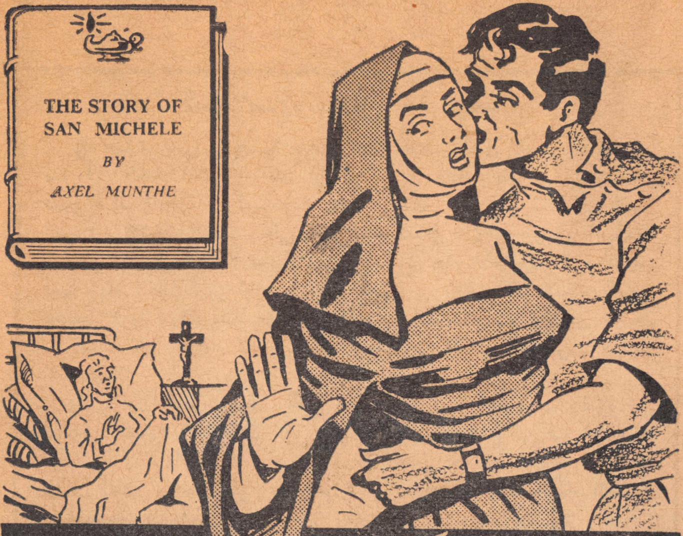
٢ ـ ولا تستطيع تقوية الضعيف باضعاف القوى !

٣ ـ ولا مساعدة الاجير الفقير بافقار صاحب العمل!

٤ ـ ولا تحقيق الاخوة بين البشر بتشجيع كراهية الطبقات بعضها لبعض !

٥ ـ ولا تستطيع للفقير نفعا بتبديد ثروة الغنى !

٦ ـ كما لا تستطيع الاخذ بناصر الغير على الدوام بتأديتك لهم الاعمال أو المهام التي يستطيعون ـ وينبغي أن ـ يؤدوها بأنفسهم !



"قصة سان ميكيل"

كوليرا .. فى نابولى !

للطبيب الأديب "اكسيل مونته"



قصة سان ميكيل .. أيضا

◆ صدق ظنى فى حسن تقبلك لهذا الكتاب الذى قدمت لك فصلين منه فى العدد الماضى ، فقد توالت على رسائلك تطالبنى بالمزيد من فصوله الشائقة !.. واستجابة لهذه الرسائل اقدم لك فيما يلى فصلا آخر من الكتاب الحبيب الى نفسى ، ونفسك ، وفيه يرسم المؤلف «دكتور أكسيل مونته» صورا من الحياة فى مدينة نابولى ايام انتشر فيها وباء الكوليرا فى أواخر القرن الماضى .. وهى كما سترى صور يختلط فيها البكاء بالضحك .. والدمع بالابتسام .. والهوى بالانين .. تماما كما تختلط كلها فى ذلك الصندوق المقفل الغامض : قلب الانسان !

ولعل أول خاطر يطوف بذهن القارىء لهذا الفصل - وغيره من فصول الكتاب الممتعة - انه وان كتبه طبيب ، بوحى من تجاربه الواقعية وذكرياته ، فانه من فرط ما حفل به من لمسات «ريشة» الفنان الملهم ، يبدو اقرب ما يكون الى «القصة» ذات البناء الفنى والتسلسل الشائق ..

- ١ -

◆ **القطار** ينهب بى الارض نهبا الى نابولى ، وقد خلا من الركاب أو كاد .. والا فمن يجرؤ على زيارة « مدينة الموت » مختارا ، فى الوقت الذى هجرها فيه أهلها وفروا طلبا للنجاة من الوباء المخيف ؟.. من يجرؤ على هذه الحماقة سوى معتوه ، أو طائش مثلى عصف بتعقله استهتار الشباب ؟! لم يكد بصرى يقع عفوا وأنا فى نزهتى ببلاد الاسكيمو على نسخة من جريدة « التيمس » الانجليزية تاهت فبلغت تلك المجاهل السحيقة ، حتى تناولتها ملهوفا على قراءة أنباء المعمورة التى انقطعت عنى أسابيع ، وفيما أنا أتصفح الجريدة ثبت بصرى مرتاعا على العنوان التالى فى صدرها « تفشى وباء الكوليرا بسرعة مخيفة فى نابولى : أكثر من ألف اصابة يوميا ! » .. الخ

وفى اليوم التالى كنت قد قررت أن أقطع نزهتى كى أخف متطوعا لنجدة المدينة الموبوءة ، بصفتى طبيبا • وكان طريق العودة المفتوح الى أوربا فى ذلك الفصل من السنة يستنفد الصبر والجهد والاحتمال •• انها ليست رحلة ، انه « خبل » •• لم يعنى على احتماله غير تحمسى لواجبى ، وشعور الفخر بأنى أفعل ما لم يفعله سواى ، وأتحمل كل تلك المشاق الرهيبة مختارا من أجل المنكوبين ، زملائى فى الانسانية !

•• وكتمت رائحة حامض الفنيك التى تملأ قطار نابولى أنفاسى ، فكدت أن يغمى على ، لولا أن وقف بى القطار الخالى أخيرا فى محطة نابولى المهجورة ، فى ساعة متأخرة من الليل •• فهبطت أعبر طرقات المدينة التى تفوح منها رائحة الموت ، مارا بقوافل طويلة من العربات والمحفات المكدسة بمئات الجثث فى طريقها الى « مقبرة الكوليرا » !

واتجهت الى الفندق القذر الذى وجدت فيه مكانا ، فوضعت فيه أمتعتى ، ثم سارعت من فورى الى الحى الشعبى الذى انتشر فيه الوباء ، حيث قضيت الليلة فى الازقة بين المحتضرين والموتى ، أتعثر فى الاجساد والجثث الآدمية المتناثرة فى كل مكان ، وأتنسم رائحة الموت وجراثيم الوباء فى كل ما يحيط بى ، حتى بلغ منى الرعب حدا لا سبيل الى وصفه ! فلم أطق صبرا ، وخرجت من الحى مرتاعا وأنا أفكر جديا فى الفرار من « مدينة الموت » •• بل أعترف بأننى قصدت فعلا الى محطة السكة الحديدية أسأل فى لهفة عن أول قطار يغادرها ، كى أنجو بنفسى من هذا الجحيم ! •• لكننى لم أجد قطارا واحدا يغادر نابولى قبل ظهر اليوم التالى ، فان المواصلات مع المدينة الموبوءة كانت قد قطعت تقريبا •• وهكذا اضطررت الى البقاء راغما ••

ولست فى حاجة الى القول بأنى لم أغادر المدينة فى اليوم التالى ولا الشهر التالى ، اذ لم يكد يشرق ضوء الصباح حتى كنت قد أسلمت مصيرى للقدر وقررت الاستمرار فى تأدية واجبى !

- ٢ -

◆ **وهكذا** عدت الى الازقة لألازم المرضى فى ساعات احتضارهم المفجعة .. ولكم تمنيت لهم يومئذ ، ولنفسى ، لو قصرت فترة احتضارهم الطويلة الرهيبة .. فقد كان عسيرا على أى انسان أن يحتمل رؤيتهم يقضون أياما كاملة ممددين فوق مضاجعهم أجسادا باردة بلا حراك ، أشبه بالجثث ، بعيونهم وأفواههم المفتوحة عن آخرها ، حتى ليصعب على الطبيب نفسه أن يعرف ما اذا كانوا أمواتا ، أو لا يزالون ينبضون بآخر أنفاس الحياة!

.. ولكم دفن مئات منهم فعلا وهم أحيــــاء ، بأيدى الجنود السكارى الذين كانوا يطوفون المدينة كل ليلة فيجمعون أكواما من الجثث على عجل ، تنفيذا للاوامر المشددة التى كانت تقضى عليهم بأن يفرغوا من دفن الموتى تحت ستار الظلام !

وحين بلغ الوباء أشده بعد حين ، لم أعد أشكو من طــول فترات الاحتضار ، فقد صار المصابون يتساقطون فى الشوارع فجأة كالمصعوقين ، فيحملون الى المستشفيات كى يقضوا نحبهم بعد ساعات معدودات !

وعلى هذا المنوال صرت أعود الى فندقى القذر كل مساء فى حال من الاعياء تجعلنى أرتمى على الفراش كما أنا ، دون أن أخلع ثيابى أو أغتسل .. فما جدوى الاغتســـال فى ماء كله قذر ، وما جدوى تطهير نفسى وكل انسان حولى يحمل جرثومة الوباء ، وكل شىء ألمسه ملوث : الطعام الذى آكله ، والماء الذى أشربه ، والفراش الذى أنام عليه ، بل والهواء الذى أتنفسه !

*

◆ **لكنى** لم أكن فى تلك الفترة أخاف الكوليرا وحدها ، بل كان هناك باعث آخر لرعبى وفزعى الدائمين : هو الفيران !..

الفيران الضخمة المخيفة التى كانت فى حجم القطط ، والتى لم تكد تطاردها حملة التطهير الصحى فى الاحيـــاء الفقيرة حتى **هجمت « ملايين » منها على بقية المدينة كالجيش الغازى هاربة من رائحة الفنيك وبخـــار « السلفر » ، ثم اندفعت تعيث فى المدينة فسادا وازعاجا بأنيابها السوداء الطويلة وعيونهـــا الوحشية التى فى لون الدم وذيولها الحمراء الرفيعة ، فعقرت فى اليوم الاول فى الشوارع أكثر من مائة من الرجال والنساء عقرا شديدا حملوا على أثره الى المستشفيات !٠٠ أما الاطفال الصغار فكانت الفيران المخيفة « تأكلهم » أكلا ولا تبقى منهم الا على العظام !**

ولن أنسى ليلة كنت فيها أعالج فتاة داهمتها الكوليرا بعد أن قتلت أباها ٠٠ وكانت جثة الاب ما تزال فى الغرفة برغم مضى يومين على وفاته ـ فقد كان الجهلة من القوم يحرصون على اخفاء مرضاهم وجثث موتاهم عن أعين رجال الصحة الباحثين عن المصابين ! ـ وفيما أنا أفحص المريضة هاجمتنى « فرقة » من الفيران المتوحشة ، فجلست على الارض الى جوار الفتـــاة وجعلت أضرب الغزاة بعصاى ٠٠ بينما كانت « فرقة » أخرى منهم تقرض جثة الاب الميت فى نهم مخيف ، أثار أعصابى ، فنهضت وأوقفت الجثة على قدميها فى ركن الغرفة ، كساعة الحائط ٠٠ لكن الفيران عادت تنهش قدمى الميت وأصابعه ! وكان هذا أكثر مما أحتمل ، فاندفعت هاربا من البيت فى حالة يرثى لها ٠٠

✻

◆ **وكانت** نابولى فى ذلك الحين مباءة للفســـاد والانحلال الخلقى ، الى حد يفوق ما اشتهرت به مدينتا « سدوم وعمورة » فى العصور القديمة ٠٠ حتى لقد سرى الاعتقاد بين أهلها حين تفشت فيها الكوليرا بأن الوباء ليس الا عقابا لها من الله !٠٠

بل ان موجة الرذيلة التي اكتسحت أمامها كل مقاييس الاخلاق والفضائل لم تتورع عن طغيانها حتى في مواجهة الموت .. فتعددت حوادث انتهاك الاعراض حتى لم تعد امرأة فاضلة تجرؤ على الخروج من عتبة بيتها !

وكانت تسليتي الوحيدة في « منفاى » الاختيـــارى حانة صغيرة وراء سوق « بيازا » تدعى « أوستريا ديللاجريا » . وكنت أقضي فيها وقت راحتي وفراغي أحتسي نبيذها الممتاز ، بل كنت أصرف فيها أغلب الليل أحيانا عندما يعاودني خوفي من الوحدة فلا أجرؤ على العودة الى غرفتي .. وسرعان ما صار ساقي الحانة « سيزار » صديقي الحميم ، فلما حدثت الاصابة الثالثة بالكوليرا بين نزلاء الفندق الذي أقيم فيه انتقلت منه الى غرفة خالية في المنزل القذر الذي كان يقطنه الســاقي ، **حيث حباني الحظ بأنيس هو « ماريوشيا » ، ابنته ذات العينين السوداوين والشفتين الحمراوين والشباب المتورد ، فصارت تطهى لى « المكارونة » وتغسل ثيابي وتصلح فراشي - اذا لم تنس ! - ولا تدخل غرفتي الا حاملة طبقا به شريحة من البطيخ أو عنقود من العنب أو حفنة من التين .. وحين تخلو جعبتها من بعض ذلك تمد يدها الى خصلات شعرها الفاحم فتنتزع منها وردة حمراء تقدمها الى باسمة وعيناها اللامعتان تتساءلان: « ألا تريد أيضا « كرز » شفتي ؟ »**

- ٣ -

◆ **على** أن نابولي لم تفقد مع ذلك طابعها المرح .. فالى جانب أنات المحتضرين وأجراس الحداد كانت ضحكات العذارى وأغاني الهوى تسمع في كل شارع .. وتحت كل نافذة فتـــاة تهمس وتغني لحبيبها !



٠٠ وفى الليل كان صدى تلك الاغـــانى يتردد فى أذنى وأنا فى فراشى أنصت لانفـــاس ماريوشيا تتردد فى صدرها وراء الحائط الخشبى ، وأســائل نفسى : « ماذا حدث لى ؟٠٠ هل مستنى يد ساحرة ؟ هل صبت لى احدى تلك الفتيـات بعض قطرات من « اكسير الحب » فى نبيذى ؟٠٠ بل ماذا جرى لكل الناس الذين حولى ، هـل سكروا جميعا بخمر مجهولة أم أصابهم جنون الشهوات وهم فى مواجهة الموت ، فراحوا يهتفون فى حماس « الموت للكوليرا ٠٠ وليحيا المرح ! » ؟

وذات مساء ٠٠ كنت جالسا فى ركنى المعتاد بحانة «أوستريا» أغالب النوم وأمامى زجاجة النبيذ ، في انتظار فراغ الساقى سيزار من عمله كى نعود الى البيت سويا ٠٠ حين هرع الى صبى يحمل ورقة استغاثة !

وبعد خمس دقائق وقفنا أمام أسوار دير « سبولتى فيف » الحديدية الضخمة ، وقادتنى راهبة عجوز خلال ممر ضيق مهجور حتى بلغنا غرفة نصف مظلمة ٠٠ **واذا بى أرى الدكتور « فيلارى » طبيب الدير وأعز أصدقائى الايطاليين ملقى فوق حشية على أرض الغرفة يتلو صلواته الاخيرة ، وقد أحاله المرض جسدا باردا متقلصا غائر الوجه ٠٠ حتى كدت لا أعرفه !**

وهز المحتضر رأسه عدة مرات وهو يبذل جهد المستميت كى ينطق بكلمة ٠٠ وأخيرا سمعنا صوته الخائر يطلب مرآة !٠٠ فلما أحضرتها له الراهبة رفعتها أمام عينيه نصف المغمضتين

برهة ، فلم يكد يطالع صورته البشعة فيها حتى هز رأسه هزة اليأس ·· وكنت الوحيد الذى فهم سر طلبه المرآة ، وهزة رأسه اليائسة ، فقد أدركت منها ـ على ضوء حديث سابق جرى بيننا ـ أنه يرجونى أن آمر بدفنه قبل أن تقع عليه ، وهو على هذه الصورة البشعة ، عين زوجته ·· العين التى طالما أحبت فيه وسامته وشبابه !

وأجبت رجاءه ، فعندما أقبلت بعد حين عربة الموتى لتحمل جثتى الراهبتين اللتين قضيتا نحبهما خلال النهـــار ، تركت رجالها يحملون جثته هو الآخر !·· وبعد ساعتين ألقى جسده مع مئات الاجساد الاخرى فى مقبرة الكوليرا المشتركة ··

·· وبقيت أمامى مهمة ابلاغ زوجته ، فيممت شطر بيتها بقلب واجف ·· ووجدتها تطل من النافذة تنتظر أوبته طوال الليل ، شاحبة الوجه ·· وكانت المسكينة فى مقتبل شبابها ، أشبه بالطفلة· وحين هرعت نحوى متسائلة عنه فى قلق، تفطر قلبى !·· قالت والرعب يثب من عينيها : « أين هو ·· ؟ » وحين ترددت فى الجواب طرحت « شالا » على كتفيها واتجهت نحو الباب : « خذنى اليه على الفور ·· يجب أن أراه حالا ·· » ·· فاعترضت سبيلها وأنا أناشدها شيئا من التعقل حرصا على نفسها وعلى الجنين الذى تحمله فى أحشائها!·· وعندئذ أطلقت صرخة عالية وتهالكت على مقعد شبه مغمى عليها وهى تبكى وتنتحب بشدة ، وتقول فى نشيج متقطع : « هذا مستحيل ·· انه لم يمت·· أنت تكذب·· لا يمكن أن يموت دون أن أراه !··» ثم اندفعت نحو الباب مرة أخرى صائحة : « يجب أن أراه ·· يجب أن أذهب اليه » ·· ومرة أخرى استوقفتها قائلا : « لن تستطيعى رؤيته ·· انه لم يعد هناك ·· انه ·· » **فهبت فى وجهى كالوحش الجريح : « انك لا تملك حق دفنه قبل أن أودعه**

.. لقد كان نور عينى فسلبتنى أنت نور عينى !.. انك كاذب، قاتل !.. أيتها القديسة « لوتشيا » ، اسلبيه نور عينيه كما انتزع النور من عينى .. افقئى عينيه كما فقأ عينى بيديه .. »

.. وظلت لعناتها تثقب أذنى وأنا أهبط السلم لائذا بالفرار .. بل لقد ظل صدى هذه اللعنات الرهيبة يصك سمعى بشدة ، طول الليل ، فلم أجرؤ على العودة الى غرفتى ، ووحدتى .. خشيت الظلام .. حتى لقد حسبت أن ضوء النهار لن يشرق قط !

- ٤ -

◆ **وفى** الصباح تلقيت نداء استغاثة أخرى من رئيسة الدير .. فلما ذهبت ، رجتنى أن آخذ مكان زميلى الراحل فى الاشراف على مريضات الدير .. ووجدت الراهبات فى حال من الفزع لا توصف ، بعضهن يذرعن الممرات مضطربات ، وأخريات يصلين للمحتضرات ، ولانفسهن !.. وكانت قد حدثت أثناء الليل ثلاث اصابات جديدة ، وماتت احدى المصابات عند الفجر .. أما الاخريان فوجدتهما فى صومعتيهما تعانيان ضراوة الداء ..

وكانوا قد عينوا لمعاونتى فى التمريض راهبة فى زهرة شبابها كانت قد استرعت نظرى فى الزيارة السابقة للدير ، وكان عسيرا ألا تسترعيه .. فقد كان جمالها وشبابها صارخين ! لكنها بدت كأنما نذرت شفتيها للصمت !.. كنت أكلمها فلا تجيب ، أسألها عن اسمها فيخيل الى أنها لم تسمع .. وأخيرا علمت أنها تدعى « الاخت أرسولا » !

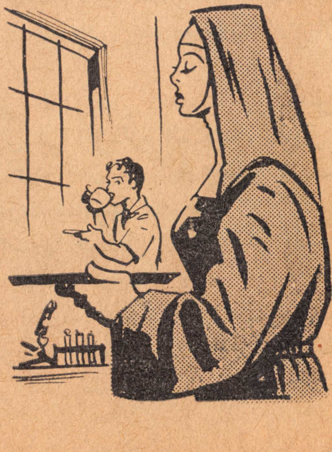
وقادتنى الاخت ارسولا الى رئيسة الدير .. فقلت لها ان ماء البئر التى فى الحديقة قد تلوث ، ولذا يجب اخلاء المكان كله فورا ، والا متن جميعا بالكوليرا .. فأجابتنى دون أن يختلج

طرفها : « مستحيل ٠٠ فان قانون الدير يقضى على الراهبة التى تدخله ألا تبرحه وهى على قيد الحياة ! »

وانقضت على بعد ذلك فى الدير أيام من الرعب لا تنسى ، لم أبرحه خلالها الا لماما كى أجلب الدواء ٠٠ وصار النوم حراما على ، بفعل العمل المتواصل ، والخوف ، وعشرات فناجين القهوة السوداء التى كنت أحتسيها بلا حساب !

لكننى كنت أختلس بعض فترات الراحة القصيرة فأنسرق الى حديقة الدير ، كى أجلس على المقعد الرخامى تحت أشجار الزيزفون أدخن عددا لا يحصى من السجاير، وأتأمل أمامى تمثال « آله الحب » المقام على عمود من الرخام الافريقى !٠٠ ومرات كنت أصادف « الاخت أرسولا » الحسناء مسترخية فوق نفس المقعد، ساهمة صامتة، تستنشق ـ كما قالت ـ نسمات من الهواء النقى تنسيها رائحة « الفنيك » التى تملأ جو الدير فى الداخل ، والتى تكاد تزهق أنفاسها !

ومرة جلبت لى قدحا من القهوة ووقفت أمامى تنتظر حتى أفرغ من احتسائها كى تأخذ القدح الفارغ ، فتباطأت فى الشرب جهد طاقتى ، كى أطيل وقفتها أمامى ـ وخيل الى أنها بدورها استمرأت تباطئى ! ـ فأحسست وأنا أنظر اليها أن عينى المتعبتين تجدان راحتهما المنشودة فى الاستلقاء على محياها !٠٠ وسرعان ما صارت الراحة نشوة ممتعة ، فلشد ما كانت العذراء حسناء ! ٠٠ ترى هل فهمت ما قالته لها عيناى ولم تجرؤ على النطق به



شفتاى : اننى شاب ، وانها فاتنة ؟٠٠ مرات كان يخيل الى أنها فعلت !!

وذات ليلة جرؤت فسألتها : لم جاءت لتدفن بين جدران الدير شبابها الغض ؟٠٠ أو لم تعلم أن فى خارج هذا المنفى الملىء بالرعب والموت عالما يصطخب باللذات ، وأن الدنيا كالعهد بها حلوة رائعة ، مترعة بالافراح ٠٠ والحب !٠٠ وفى اللحظة التى نطقت فيها بكلماتى « الفاجرة » دق الجرس يدعو الراهبات لصلاة المساء ، فرسمت أرسولا على صدرها علامة الصليب وهرعت الى الداخل !

وبعد لحظات جاءتنى راهبة أخرى تدعونى على عجل ٠٠ لقد سقطت « الرئيسة » مغشيا عليها ، فحملت الى صومعتها ٠٠ وبعد ساعات دخلت في دور الاحتضار ٠٠ وأخيرا وضعت سماعتى على قلبها فلم أسمع شيئا ٠٠ لقد انتهى كل شىء !٠٠ وجعلت أنظر للوجه الصارم المسجى ، الذى لم يستطع الموت نفسه أن يلين قسماته ، فتملكنى بالرغم منى شعور بالارتياح لان عينيها القاسيتين قد أغمضتا الى الابد ٠٠ فقد كان فيهما شىء يخيفنى !٠٠ والتفت الى الراهبة الحسناء التى الى جانبى ، وقلت لها : « لا أستطيع البقاء هنا بعد الآن ٠٠ منذ مجيئى لم أنم ، ان رأسى يدور ، لم أعد المخلوق الذى كنت ٠٠ لست أدرى ماذا حدث لى ٠٠ اننى خائف من ٠٠ »

ولم أجد وقتا لاكمل كلامى ٠٠ ولم تجد هى وقتا كى تتراجع الى الخلف ، فقد التفت ذراعاى حولها ، وأحسست قلبها اليافع يدق صدرى بشدة !

وفجأة ٠٠ صاحت مذعورة ، وعيناها تشيران نحو فراش المتوفاة ، ثم انفلتت من الغرفة مرتاعة !٠٠ كانت عينا «الرئيسة» مفتوحتين عن آخرهما ، تحدجاننا بنظرات نارية مخيفة ٠٠ فانحنيت فوقها أفحصها من جديد ، وقد خيل الى انى أسمع قلبها ينبض فى خفوت ، وان لم أستطع أن أجزم : هل كانت

ميتة ، أم لا تزال حية ؟ .. ولم أجرؤ على رؤية عينيها مرة أخرى فنشرت الغطاء الابيض على وجهها وأنا مشيح عنها .. ثم اندفعت هاربا من الصومعة ، ومن الدير كله .. الى غير رجعة!

- ٥ -

◆ **وفى** اليوم التالى سقطت مغمى على وأنا أباشر عملى .. وحين عدت الى وعيى وجدتنى مضطجعا داخل عربة وأمامى شرطى يبدو عليه الفزع منى . كنت فى طريقى الى « سانتا مادلينا » .. مستشفى الكوليرا !

وفى وسع قارىء هذه السطور أن يستنتج من قراءتها اننى لم أمت !.. فقد خرجت من عراكى مع الموت ظافرا ..!

وبعد ثلاثة أسابيع غادرت نابولى بطريق البحر ، غير آسف الا على شىء واحد : على مسلكى الفاضح مع الاخت ارسولا !.. المسلك الذى ظل يطارد ضميرى وعقلى سنوات طويلة ، وما يزال ! .. لكننى كلما امعنت الفكر فيه ، انتهى دائما الى نفس الحيرة : **كيف فعلت ذلك ؟ أية قوة خفية أفقدتنى السيطرة على حواسى .. لقد كنت دائما سيد نفسى وحسى ، القادر على قمع كل حركة تمرد منهما .. فما الذى حدث لى اذن ، فجعلنى فى فترة اقامتي تلك بنابولى أحس برغبة جارفة فى أن أحيط بذراعى كل فتاة يقع عليها بصرى ؟..** لعل فيما يلى بعض الجواب :

أعتقد أنى لم أشهد طوال حياتى تلك المعركة الدائبة بين الحياة والموت ، عبثا ، وبغير أن أخرج منها بمعرفة شىء عن كلا المتحاربين!.. لكننى حين رأيت الموت لاول مرة يحصد الارواح فى أروقة مستشفى كلية الطب ، كان ما رأيته أشبه بلعبة أطفال بالقياس الى ما رأيته منه في الجولات التالية : فقد شهدته فى نابولى يصرع أكثر من ألف ضحية كل يوم أمام عينى !.. وشهدته فى « مسينا » يدفن تحت أنقاض الزلزال نحو مائة ألف من الرجال والنساء والاطفال فى دقيقة واحدة !.. ثم شهدته فى « فردان » مخضب الذراعين ، حتى المرفقين ، بدماء

ضحاياه .. يذبح أربعمائة ألف رجل دفعة واحدة ، فيفنى فى سهول الفلاندر والسوم زهرة جيش بأسره !

وعندئذ فقط أدركت ما كان مستعصيا على فهمى : أدركت أن معركة الحياة والموت فى مثل هذا النطاق الواسع انما ينظمها بأدق دقائقها قانون التوازن البشرى الخالد : **فحيثما ترجح كفة الموت على كفة الحياة رجحانا خطيرا يهدد باختلال التوازن، بسبب أى عامل من عوامل الفناء ، سواء فى ذلك الحرب أو الزلزال أو الوباء ، تنشط « الطبيعة » الساهرة فى الحال لاعادة التوازن المختل ، لجلب كائنات جديدة تأخذ مكان التى صرعت .. فتستخدم قوتها التى لا تقاوم كى تلقى بالرجال والنساء فى أحضان بعضهم البعض ، فى عنف وشهوة عمياء ، دون أن يدرك أحد منهم أن الذى يحرك الخيط وفى احدى يديه نعش ، وفى الاخرى مهد .. ليس سوى الموت !.. الموت سالب الحياة ، وواهب الحياة .. البداية والنهاية !**

من ذكر بلايا الغير ..

◆ **كانت** احدى المدرسات فى معهد للاطفال ذوى العاهات قد اصطحبت بعض صبية المدرسة الى « سيرك » فى حدائق ميدان ماديسون .. وكان بعض الصبية من العميان وبعضهم الآخر من الصم ، فخطر للمدرسة أن تسألهم اثناء العودة عما اذا كانوا قد استمتعوا بنزهتهم .. فانبرى صبى أعمى كان بجوارها يجيبها بصوت غير مسموع : « لا شك اننى استمتعت بالنزهة تماما ، وان أرث فاننى أرثى لحال أولئك الصبية المصابين بالصمم الذين لم يستطيعوا سماع جوقة الموسيقى وهى تعزف ، والسباع وهى تزأر ، والجماهير وهى تصفق .. بل انهم لم يسمعوا حتى صوت الفيلة وهى تنادى بعضها البعض ! »

ومن نظر الى بلايا الغير ، هانت عليه بلواه !

عزيزى القارىء ...

قرات معى فى الاعداد الماضية من « كتابى » ، القصص الآتية :

- أموك : لستيفان زفايج
- قلب عذراء : جون جالزورثى
- مرتفعات وذرنج : اميلى برونتى
- التلميذ : بول بورجيه
- أحدب نوتردام : فيكتورهوجو
- جريمة حب : بول بورجيه
- جين اير : شارلوت برونتى
- أيام بومباى الاخيرة : لورد ليتون
- مانون ليسكو : الاب بريفو
- حديقة الله : روبرت هتشنز
- عندما تحقد المرأة : أونيه
- آسيا : ايفان تورجنيف
- كاس تمبرلين : سنكليرلويس
- الشيطان على الارض : برتراند رسل
- تاييس : أناتول فرانس
- رسالة من مجهولة : زفايج
- الحب الاول : ترجنيف
- بلاد العميان : هـ . ج . ويلز
- نادى الانتحار : ستيفنسون

واليوم أقدم لك فيما يلى هذه القصة الانسانية ذات المغزى السامى والهدف النبيل : « كوخ العم توم »

قصة الحياة



روائع القصص العالمى


UNCLE TOM'S CABIN
By
HARRIET BEECHER STOWE
كوخ العم توم
للكاتبة الأمريكية
هارييت بيتشر ستو

قصة القصة ..

وشهد شاهد ٠٠ من أهلها !

◆ لو ان روسيا أرادت أن تشن أقسى حملة لمهاجمة أمريكا فى مجال الحرب الباردة ، ما وفقت مثل توفيق مسز « هارييت بيتشر ستو » فى هذه الرواية التى وضعتها منذ مائة عام تقريبا ٠٠ فان هذه المرأة التى كانت نكرة مجهولة فى أمريكا ، والتى كانت مهامها العائلية – كأم لسبعة أطفال – كفيلة بأن تشغلها عن كل شىء ، والتى لم تلم يوما بفنون الديبلوماسية والدعاية ٠٠ هذه المرأة استطاعت أن تشن لقضية العبيد الزنوج فى أمريكا حملة دعاية لا تكاد تعادلها حملة فى تاريخ الدعايات ، سيما لو قدرنا أن الدعايات للقضايا الخطيرة تثيرها عادة هيئة – بل هيئات – فى حين أن هذه المرأة قامت بحملتها ضد نظام الرقيق فى أمريكا ، بمفردها ، لا يؤازرها سوى قلب نبيل مفعم بالاحاسيس المرهفة والشعور الانسانى الناضج ، ولا سلاح لها سوى قلم ألهبه الايمان بعدالة القضية التى شنت من أجلها حملتها ٠٠

وبهذا القلم ، وذاك القلب ، سجلت « هارييت » حدثا خالدا فى تاريخ الادب العالمى ، وأشعلت نار حرب غيرت وجه التاريخ فى العالم كله ، (فما كان من المنتظر للولايات المتحدة – لو أنها ظلت مقتصرة على ولايات الشمال ، كما كانت حالها قبل الحرب الاهلية لتحرير العبيد ، التى انتهت بهزيمة الجنوب وضمه الى الشمال – ماكان ينتظر لهذه الدولة لولا ذلك أن تبلغ من القوة والنفوذ ما تتمتع به اليوم) ٠

ويروى عن « ابراهام لينكولن » أنه حين رأى مسز « ستو » للمرة الاولى ، هتف فى دهشة : « أهذه السيدة الصغيرة هى التى خلقت هذه الحرب الكبيرة !؟ »

ذلك لان « هارييت » كانت ضئيلة الجسم ، فى الثانية والاربعين من عمرها ، وأما لسبعة من الاولاد ، حين شرعت تكتب قصة « كوخ العم توم » ٠٠ وما خطر لها أن سيكون لقصتها كل ما قدر لها من آثار أدبية وانسانية وسياسية ٠٠ ولكن « الله يهدى القلم ويسيره » كما عبرت بنفسها ! وبدلا من أن تمر القصة كسواها فى موكب التأليف ، اذا بها ترفع كاتبتها الى مرتبة المجد والخلود ،



وتجعل منها « أول قصصية تكرس قلمها للدفاع عن المستعبدين المستذلين فى الارض » ٠٠ ولعل أغرب دليل على أن هارييت لم تكن مغالية فيما قالته من أن الله هو الذى هدى قلمها ، انها لم تتلق من الثقافة والدراسة ما كان يؤهلها للتأليف !

كانت ابنة قس واعظ انحدر من أسرة عريقة من أسرات « نيو انجلند » ، واستغرق فى دراسته للدين والمجتمع حتى عرف كيف يمزج بين الاثنين – وقلة من رجال الدين من يوفقون الى دراسة الدنيا تحت أضواء الدين ، ومن يوفقون فى تطبيق تعاليم الدين لاصلاح الدنيا – وقد ورث عنه أبناؤه رسالته ، بل ان ابنه الاكبر « هنرى وارد بيتشر » غدا مصلحا كبيرا تجاوز النطاق القومى المحدود، فاذا به يصبح من زعماء حركة محاربة الرق والدعوة الى تحرير العبيد فى كل مكان ٠٠ وذهب تحمسه الى درجة دفعته الى أن يصيح من فوق منبر الوعظ : « لئن تقوم حرب خير عشرة آلاف مرة من أن يبقى الاستعباد » !

نبوغ متأخر

وورثت « هارييت » هى الاخرى نصيبا من روح أبيها ورسالته وتعاليمه ٠٠ وان كانت تفاعلات هذه الروح والرسالة والتعاليم ظلت تحتدم فى صمت فى أعماقها ، فلم تتكشف على أشدها فى البداية ، وانما قضت هارييت طفولة هادئة، وشبابا مطمئنا ٠٠ واشتغلت بالتدريس عشر سنوات ، حتى اذا بلغت الخامسة والعشرين ، زوجت – فى سنة ١٨٣٦ – الى عالم بدين من تلامذة أبيها يدعى « كالفين ستو » ٠٠

وحتى ذلك الوقت ، لم تبد عليها معالم مواهب فذة ، وان بدا ميلها الى التأليف والادب ، فوضعت كتابا فى الجغرافيا للاطفال ، وكتبت عددا من القصص القصيرة التى لم تبشر بنبوغ ٠٠

وقضت هارييت بعد زواجها خمس عشرة سنة تفرغت خلالها لواجباتها المنزلية والعائلية ، وأنجبت سبعة أطفال ٠٠ حتى اذا بلغت الاربعين عاودت الكتابة لتكسب ما يساعد على تربية الاولاد ٠٠ وكانت عودتها تلك تمهيدا لظهور هذا الحدث الادبى الضخم ، الذى أدرجه « تولستوى » فى عداد المؤلفات التى اعتبرها أعظم نتاج الذهن البشرى !

وقد بدأ تفكير مسز ستو فى كتابة رواية « كوخ العم توم » قبل أن تشرع فى كتابتها فعلا بعشرين سنة ! فقد قامت يومئذ برحلة قصيرة الى ولاية « كنتكى » شهدت فيها مآسى العبيد فى الولايات الجنوبية ، فراحت تجمع ما تصل الى نبأه من قصص فرار العبيد من طغيان السادة البيض ، وأحاطت كل ذلك باطار من تعاليم « الاب هنسون » ، وكان واعظا زنجيا أنشأ مستعمرة للعبيد الهاربين الى كندا ..

العم توم الحقيقى !

◆ ومن الطريف أن الاب « جوزياه هنسون » كان « النموذج » الذى صاغت هارييت على غراره شخصية « العم توم » - كما اعترفت فى كتابها « شرح كوخ العم توم » الذى ردت فيه على حملات النقاد الذين استثارتهم النعرة القومية فأبوا أن يؤمنوا بأن سطح الارض حمل أمثالا للعم توم !

وهكذا كان « هنسون » الشخصية المادية لتوم .. ومع انه مات منذ حوالى خمسة وسبعين عاما - متجاوزا التسعين - الا أن ظله « توم » خلده فى أذهان كل عنصر ولون وجنس على مر الاجيال ..

وقد ولد « هنسون » فى احدى مزارع « ماريلاند » فى ظلال الاستعباد ، وفى كنف المذلة ، اذ كان والداه من الرقيق ، فكان بالتبعية ملكا لمالكهما ، ليس لابويه فيه حتى حق اختيار اسمه ، اذ كان مولاهما هو الذى سماه !

وكما حدث للعم توم فى القصة ، حظى « جوزياه هنسون » بثقة سادته ، وحب زملائه .. ولكن هذا لم يحل بينه وبين أن ينال حظه من قسوة السادة البيض وصلفهم ، فكان يضرب فى وحشية ، ويسام أزرى ألوان الذلة والخسف ، غير أن ذلك لم يفعم روحه بالسخط على السماء والقدر وبالحقد على الارض والبشر ، بل كان له من ايمانه خير وقاء ..

وكانت قصة حياة « جوزياه » من أروع القصص ، وقد سجلها فى كتاب بقلمه أسماه « الحقيقة أغرب من الخيال » .. فقد نشأ - ككل عبد فى أواخر القرن الثامن عشر - وليس له من هم سوى أن يستجلب رضى مولاه « ايزاك رايلى » ، الذى جعله مراقبا لمزرعته وهو بعد فى الثامنة عشرة .. ومع ما أبداه « جوزياه » من تفان ، وما أداه من خدمات ، الا أنه ظل فى نظر « رايلى » مجرد عبد رقيق ، ملك يديه ، يفعل به ما يشاء دون أن يحاسبه أحد !.. لذلك لم

يتورع عن أن يشج رأسه بالعصا حين فاجأه يوما وهو ممسك بكتاب يتعلم منه اصول الكتابة والقراءة ، اذ بدا ميل العبد للتعلم « جريمة » فى نظر السيد الابيض ، وضاعف الجرم « بشاعة » أن العبد أباح لنفسه أن يقتطف بعض التفاح من بستان السيد ليبتاع بثمنه الكتاب !

وكان « رايلى » مقامرا سكيرا ، فكان على « جوزياه » أن يرافقه يوميا الى الحانة ليدفع عنه ما تجره عليه شراسته من أذى ٠٠ وفى ذات يوم تربص له بعض العبيد ـ بسبب السيد ـ فظلوا يضربونه حتى كسروا عظام احدى كتفيه ، فخلفوا له عجزا فى ذراعه اليسرى مدى الحياة ٠٠

فى الفرار !

◆ ومع كل ما كان يناله على يدى سيده الابيض ، الا أنه ظل وفيا له ٠٠ وقد حدث أن غرق السيد فى الديون ، فلما همت مزرعته أن تباع ، رأى أن يهرب عبيده الى مزرعة أخيه فى « كنتكى » ، فعهد بالقطيع الى « جوزياه » ٠٠ وكان فى وسعه أن ينتهز الفرصة ليتحرر ويحررهم معه ، ولكن ولاءه لمولاه وتقديره للامانة ، جعلاه يرفض ما اقترحه عليه بعضهم من اجتياز نهر « أوهيـــو » والسعى الى كندا !

وفى مزرعة الشقيق « آموس رايلى » ، قدر لجوزياه أن يتعـرف الى الدين المسيحى ، وسرعان ما راح يعرف العبيد به ، فانتهى الامر الى أن اعترفت به الكنيسة الاسقفية النظامية واعظا فى سنة ١٨٢٨ وهو فى التاسعة والثلاثين من عمره ٠٠

وازدادت ديون مولاه ، فأوعز الى أخيه بأن يبيع جميع العبيد عدا جوزياه وأهله ٠٠ ورأى جوزياه كيف كان الاب ينتزع من أولاده ، والزوجة من زوجها ، دون مراعاة للروابط العائلية ، فحز فى نفسه الندم على أنه لم يطلقهم ويحررهم يوم كان فى يده أن يفعل !٠٠ وعلى ضوء شعلة الندم تبين رسالته الجديدة فى الحياة ، ورأى المصير الذى قد يساق وأهله اليـــه يوما ، ومن ثم رأى أن يبتاع حريته وحريتهم بالمال ٠٠ فسعى لدى « آموس » شقيق مولاهحتى أذن له، فانطلق يطوف بمراكز العبيد يعظهم ويبشر بالدين ، ويتلقىجزاء ذلك هبات كانوا يمنحونها عن طيب خاطر ، حتى جمع مائتين وخمسة وسبعين دولارا ٠٠

ولكن السيد حنق على عبده أن أحس بالكرامة والرغبة فى التحرر ، فأبى أن يبيعه حريته بأقل من ثلاثمائة وخمسين دولارا تدفع نقدا ، ثم يتبعها بعد حين بمائة أخرى !٠٠ وجد « جوزياه » وعمل دائبا حتى حصل على المبلغ ٠٠ ولكن السيد زعم انه انما اتفق معه على خمسمائة وخمسين دولارا ، فعليه أن يواصل

العمل لكسب الفرق ·· وأدرك « جوزياه » أن السيد الابيض انما يغرر به ، وقد استحل ماله ·· غير ان القانون ما كان ليصدق العبد ويكذب مولاه !

وفطن « جوزياه » يوما ـ اذ رحل فى رفقة ابن « آموس » ـ الى أنه انما كان يستدرج ليباع فى سوق النخاسة فى « نيوأورليانز » ! فوسوس اليه الشيطان أن يقتل الفتى ، لولا أن ذكر ربه فى اللحظة الاخيرة ، فندم واستغفر ··

وبلغا « نيو أورليانز » ·· وقبيل السوق ، أصيب الفتى بحمى خبيثة ، زادت من وطأتها وحشة الغربة ، فاستأنس بالعبد وتشبث به ·· ونسى « جوزياه » أن الغدر من شيم السادة البيض ، فعكف على تمريض الفتى ولم يحاول الفرار··

ولكن صنيعه لم يشفع له عند مولاه ، فعاد يدبر الخطة لبيعه ·· واذ ذاك انهار تشبث العبد بالولاء ، وقرر أن يهرب بزوجته وأطفاله الاربعة ·· وفى مساء أحد أيام سبتمبر سنة ١٨٣٠ حمل ولديه الصغيرين فى كيس على ظهره ، واصطحب زوجته وولديه الآخرين وانطلقوا ·· وكانوا يلوذون بالغابات نهارا ، ويسيرون ليلا ، حتى عبروا نهر « أوهايو » ، وقطعوا ولاية « انديانا » ثم اجتازوا بحيرة « ايرى » فى سفينة أشفق عليهم ربانها فلم يتقاض أجرا ، بل منحهم ما يساعدهم على السفر الى كندا

يتزعم العبيد الهاربين !

◆ وبدأ جوزياه حياته الجديدة وهو لا يملك سوى ايمان عتيد ·· فسرعان ما أثبت انه كان أهلا للحرية ، وعمل دائبا حتى أنشأ مستعمرة للعبيد الهاربين ·· وكان يطوف بأرجاء كندا ونيو انجلند يدعو للدين ، ويستحث الضمائر الحية أن تهب لمكافحة النخاسة والاستعباد

وعندما أقيم مهرجان الامبراطورية البريطانية فى سنة ١٨٥١ ـ احتفالا بيوبيل الملكة فيكتوريا ـ اصطحب جوزياه نخبة من أبناء مستعمرته الى لندن ليدلل على أن الزنوج آدميون كالبيض ، وليوقظ بأحاديثه الضمير العالمى · وكان فى تلك الاثناء قد كتب قصة جهاده من أجل الحرية ورصد أرباحها لمكافحة النخاسة والرق ، فكانت الكلمات الصماء من أقوى الاسلحة التى استعان بها على تحقيق أهدافه ··

وعندما عاد من انجلترا ، وجد ذخيرة جديدة لكفاحه ممثلة فى كتاب « كوخ العم توم » ، الذى ظهر فى تلك الاثناء واستقبل من الجماهير بأروع مظاهر الحماسة والاعجاب !

ومرت السنون ، وحرمت النخاسة والرق ·· واذ ذاك عاد « جوزياه » يزور انجلترا ، فاستقبل استقبال الابطال المظفرين ، وفتحت له الهيئات والمعاهد أبوابها ليحاضر الناس ، الذين كانوا يتزاحمون بالمناكب حوله ·· ودعته الملكة

فيكتوريا الى حفلة جمعت فيها كواكب المجتمع والبلاط من السيدات الرفيعات الشأن ..

وعاد الى كندا مثقلا بالهدايا وألقاب الشرف ، فحن الى ماريلاند ، وطنه الاصلى، ومهد عبوديته .. وهنـــاك ألفى كل شيء قد تغير : فالزنوج قد رحلوا الى جمهوريتهم فى افريقيا الغربية «ليبريا».. والحشائش صارت تنمو فىحقول القمح لان العبيد ذهبوا وحل محلهم عمال يتقاضون أجورا ولا يساطون !

لم يكن باقيا من العهد القديم سوى أرملة « ايزاك رايلى » ، وقد ذهبت السنون ببصرها فلم تتعرف عليه الا بتحسس الندوب التى شقها النخاس فى ذراعه فى صغره لتكون علامة يعرف بها .. وهتفت السيدة :

ـ لعمر الحق يا جوزياه .. لقد غدوت سيدا !

فأجابها فى عزة ويقين :

ـ بل كنت دواما .. سيدا !

حلم فى اليقظة .. يوحى بالقصة !

ذلكم هو النموذج الذى صيغت على غراره شخصية « العم توم » .. ولنعد الآن الى قصة مسز « ستو » .. فمنذ أن التقت بالاب « جوزياه هنسون » فى احدى جولاته التبشيرية وهى لم يهدأ لها بال ، وظلت الاحداث تتفاعل فى أعماقها .. وكانت حركة تحرير العبيد ـ التى بدأت فى الولايات الشماليـــة سنة ١٨٣٠ ـ تثير مخاوف السادة البيض فى ولايات الجنوب ، وكلما انتشرت الدعوة انقلبت مخاوفهم الى هوس !.. حتى صدر ـ فى سنة ١٨٥٠ ـ القانون الذى يحرم على الاهالى فى ولايات الشمال مساعدة العبيد الهاربين!.. فاذا بالحركة تذكو ، واذا مسز « ستو » تندمج فيها بكل روحها .. اذ كتبت لها يومئـــذ زوجة شقيقها تقول : « لو اننى كنت أملك قلما كقلمك ، لكشفت للشعب عن نقمة الاستعباد والرق » .. فكانت هذه العبارة هى الشرارة التى أضرمت الهام « هاريت »

وفى أحد أيام فبراير سنة ١٨٥١ ، كانت تجلس فى كنيسة البلدة شاردة ، ساهمة الذهن .. وفجأة ، رسم الخيال لها منظرا لعله كان من فيض الابخرة المتصاعدة من تفاعل العوامل المكبوتة فى نفسها : منظر أحد سادة المزارع البيض يأمر بجلد عبد اشتعل رأسه شيبا ، واكتست أساريره بنفحات التقوى .. وتلقى العبد لهيب السياط بصبر لم يزد الطاغية الابيض الا طغيـانا ، فظلت السياط تهوى على العبد المسكين ، حتى مات وعلى شـفتيه دعاء لله أن يغفر لقـاتله !

وقفزت « هاربيت » فهرولت الى دارها ، وأرسلت قلمها يصور المشاعر التى تفجرت فى أعماقها ٠٠ وكانت القصة فى بدايتها قصيرة ، ولكنها ما لبثت أن رأت أن الموضوع أهم من ذلك ، فمضت تنسج منها رواية طويلة ٠٠ وبعد أن كانت تتوقع أن تنشرها فى مجلة « العهد القومى » - ذى ناشنال ايرا - التى كانت توافيها بانتاجها ، على ثلاث حلقات ، (فى مقابل ثلاثمائة دولار) ، اذا بها تمتد الى أربعين حلقة ، قضت سبعة شهور فى اعدادها ، ثم تبينت أنها لم تتجاوز أكثر من ثلث القصة ٠٠ وكما قالت ، لم تكن هى التى تكتب ، بل ان العناية الآلهية كانت تسوق قلمها وتلهمه !

أرقام خيالية !

وطبعت قصة « كوخ العم توم » ككتاب فى مارس سنة ١٨٥٢ ، فشغلت مجلدين ، وان هى الا ثلاثة أسابيع حتى بلغ ما بيع منها ٢٠٫٠٠٠ نسخة ! وتوالى طبعها ونفاد نسخها ، فلم يحن شهر يونيو حتى كان يباع منها ١٠٫٠٠٠ نسخة فى الاسبوع ٠٠

وهبت صحف الجنوب تستهجن القصة وتكذب حوادثها وتحمل على كاتبتها ٠٠ وثار سادة الجنوب فحرموا بيع القصة فى المكتبات ، وقرروا عقـاب من يبتاعها ٠٠ ومع ذلك ، فلم يحن شهر اكتوبر من ذلك العلم حتى كان ما بيع منها ١٠٠٫٠٠٠ نسخة ، وعدد اللغات التى ترجمت اليها اثنتى عشرة لغة ، وعدد الطبعات التى استباح الناشرون فى الخارج ، لا سـيما فى انجلترا ، لانفسهم اصدارها دون اذن المؤلفة : عشرين طبعة !٠٠ وكانت تنشر مسلسلة فى ست صحف باريسية فى آن واحد !

ولقد وصفت أديبة فرنسا الخالدة « جورج صاند » مؤلفتنا بالعبقرية والنبوغ، وقرأ « لورد بالمرستون » قصة « كوخ العم توم » ثلاث مرات ، ولم يكن قد قرأ قصة واحدة طيلة ثلاثين عاما !٠٠ ووقعت ٥٠٠٫٠٠٠ امرأة فى انجلترا نداء الى نساء أمريكا يلتمسن فيه أن يحاربن الرق !

واذ اكتمل العام الاول لصدور القصة ، كان عدد النسخ التى بيعت منها بمختلف اللغات ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ !

ولقد ألفت « هاربيت » بعد « كوخ العم توم » قصصا وروايات كثيرة أخرى، كما ألفت من قبلها ٠٠ ولكنها لم تصب فى أى منها ما أصابت فى هذه القصة من مجد وسمو ٠٠ فهى - كما قالت - لم تكن تكتبها ، وانما كانت مسوقة بايحاء الهى يحرك القلم فى يدها دون وعى منها !

- ١ -

◆ **ما كان** مستر شيلبى بالذى يسهل عليه أن يبيع أحدا من عبيده ، وبخاصة « توم » المسن الذى طالما حمله طفلا صغيرا ، ورعاه غلاما وفتى ، ورافقه رجلا ناضجا ، فكان خير عون له ٠٠ توم التقى الورع الذى تفتح قلبه للايمان ، فأخلص للدين حق الاخلاص ٠٠ توم الصادق الامين الذى أوفده مرة الى «سنسناتى» ليحصل لحسابه مبلغ خمسمائة دولار من أحد عملائه ، فحاول بعضهم أن يغريه على الفرار الى كندا ليتحرر من الاستعباد ، ولكنه قال لهم : « لقد ائتمننى سيدى ، فلا أستطيع الفرار ! »

ولكن الديون كانت قد جعلت مستر « شيلبى » تحت رحمة النخاس ـ تاجر العبيد ـ القاسى القلب « هالى » ، فلم يجد بدا من أن يبيعه « توم » مقابل اعفائه من ديونه ! ٠٠ ولكن الجشع راود « هالى » ، فاصر على ان يدخل فى الصفقة طفلا فى الخامسة من عمره يدعى « هارى » ٠٠ وكان التفريط فى ذلك الطفل بالذات من أشق الامور على نفس مستر « شيلبى » ، اذ كانت أم الطفل « اليزا » ، أحب الجوارى الى زوجته ٠٠ غير أنه لم يكن يملك سوى الرضوخ لدائنه ، فى ذلك الصباح البارد المشؤوم من شهر فبراير !

واشتمت « اليزا » ـ السمراء الرقيقة ، الجميلة ، ابنة الخامسة والعشرين ـ ما يراد بوحيدها ، فاستبد بها الهلع ، لولا أن طمأنتها مولاتها التى رعتها منذ الصغر وقربتها اليها ٠٠

وكانت ولاية « كنتكى » مسرحا مثاليا لنظام الاتجار فى الرقيق ٠٠ كانت ولاية زراعية ، فكان السادة يحرصون فيها على عبيدهم ، ولا ينساقون وراء اغراء الاثمان المرتفعة التى كان يعرضها النخاسون الذين كانوا يجمعون الرقيق للولايات

الجنوبية حيث تمس الحاجة للايدى العاملة ٠٠ وكان السادة فى « كنتكى » ميسورى الحال ، فلم تك بهم حاجة الى التخلص من عبيدهم ، بل كانوا لطول العشرة يألفونهم ويعاملونهم فى رفق وانسانية ٠٠ لذلك كان العبيد سعداء ، يخلصون لهم ويؤثرونهم بأسمى ألوان الولاء ٠٠ على أن سعادتهم هذه كانت دواما مهددة ٠٠ مهددة بالقانون الذى يعتبرهم متاعا ٠٠ ومهددة بما يحيق بسادتهم من فشل ، أو سوء حظ ، أو موت ، مما قد يؤدى الى انتقالهم هم من حماية طيبة كريمة ، الى شقوة قاسية فى خدمة أسياد جدد غلاظ القلوب !

❉

◆ **وكانت** « اليزا » تدين لمولاتها « مسز شيلبى » ـ النبيلة المحتد والخلق ـ بنشأتها وتربيتها ٠٠ وبنجاتها من عواقب جمالها الفاتن ـ فقد كان الجمال نقمة على الجوارى المستعبدات، اذ كان يغرى بهن السادة البيض ! ـ وبفضل رعاية مسز شيلبى ، انتهت « اليزا » الى الزواج من عبد بمزرعة مجاورة ، يدعى « جورج هاريس » . وكان موهوبا ، من المخلطين مثلها ـ (أى نتاج أب من السادة البيض وأم من المحظيات السود) ـ وقد أجره مولاه للعمل فى مصنع للاكياس ، فهداه ذكاؤه الى اختراع آلة لتنظيف القنب ، مما أوغر مولاه عليه ـ وكان طاغية مريدا ، خشى أن يرتفع العبد فوق مستوى الرقيق ، فرده الى العمل فى الزراعة ، وسلط عليه أدنأ أساليب الاذلال ! ـ ولم يكن صبر الشاب ليزيد مولاه الا رغبة فى التنكيل به ، والقضاء على روحه الطموح ، وذكائه المتوقد ٠٠ حتى امتلأ قلب « العبد » حقدا عليه وسخيمة !

وجاء « جورج » فى ذلك المساء يزور زوجته فى غيبة مولاتها ٠٠ وجزعت الشابة لما لمسته فيه من قنوط وشقاء ، فراحت تهيب به أن يصبر على جور « مولاه » ولكنه صاح فيها :

ـ مولاى !؟٠٠ ومن الذى نصبه مولى على ؟٠٠ أى حق له فى أن يمتلكنى ؟٠٠ اننى انسان مثله ٠٠ بل أنا خير منه ، فأنا أعرف أكثر مما يعرف ، وأنا أقدر منه على ادارة الاعمال ، وأحسن منه قراءة وخطا ٠٠ وقد تعلمت كل ذلك بنفسى دون أن يكون له أى فضل ٠ لقد حاولت أن أصبر على اسفافه فى اذلالى ، ولكن للحم والدم طاقة يعز بعدها الاحتمال !

ووصف لها كيف قيده الطاغية الى شجرة فى اليوم السابق، ودعا ابنه كى يلهبه بالسوط حتى كلت يداه ، ثم استطرد قائلا: « من الذى جعله سيدا لى ؟٠٠ لقد دررت عليه ما يعادل ما أنفق مائة مرة ٠٠ لا ٠٠ لن أحتمل بعد اليوم ٠٠ لا تذكرينى بالله ، فان قلبى ملىء بالمرارة ، ولم يعد بوسعى أن أثق بالله ، والا فكيف يرضى عن هذه الاوضاع ؟٠٠ كم أود أن أكون صالحا ، لولا أن فؤادى يحترق ، فلا سبيل الى اصلاحه ٠٠ انك لم تعلمى بعد ببقية التنكيل الذى أصابنى منه ٠٠ لقد دأب أخيرا على تهديدى بمنعى من المجىء اليك ، وعلى تكرار انه سيزوجنى من احدى جوارى مزرعته ٠٠ حتى اذا كان الامس ، أمرنى بأن أتزوج من فتاة عينها لى ، والا باعنى ! »

قالت (اليزا) فى بساطة : « ولكنك تزوجت منى على يدى قس ، كأى زوجين من البيض ؟! »

ـ أما علمت أن ليس للعبيد أن يتزوجوا ؟٠٠ هكذا يقضى قانون البلاد !

وصارحها جورج بعزمه على الفرار الى كندا ، حيث يمكنه أن يعمل ويدخر ما يمكنه من أن يبتاعها وطفلها ويحررهما !٠٠ وبين البكاء واللوعة ، افترقا ، وأملهما فى اللقاء أوهى من نسيج العنكبوت !

❇

◆ **كان** كوخ « العم توم » مشيدا من الخشب لصق منزل مولاه ، تحتضنه النباتات المتسلقة المزهرة ، وتستلقى أمامه

حديقة صغيرة أنيقة ، تنمو فيها الخضر والفواكه ..

والى هذا الكوخ دلفت العمة « كلو » بعد أن انتهى العشاء في دار السيد ، لتعد عشاء رجلها المسن ، وأطفالهما الثلاثة .. وكانت النظافة والهدوء والدفء تسيطر فى داخل الكوخ ، وقد جلس « العم توم » ـ بطل قصتنا ـ الى مائدة أمام المدفأة ، مع السيد جورج ابن مولاه ، الذى كان يحبه ويشغف بفطائر زوجته « العمة كلو » ، حتى ليضحى بالعشاء مع والديه ليلتهم فطيرة تعدها له فى الكوخ ، وليعيش سويعات فى جو الكوخ الهانىء..

وكان توم فارع الطول ، عريض الصدر ، بادى القوة رغم سنه ، تنم قسماته عن أصل افريقى عريق ، وتسيطر عليه سيماء الرزانة ، والرفق ، والتقوى .. وكان حين أقبلت «كلو » عاكفا على محاولة الكتابة فى لوح من الاردواز ، تحت ارشاد السيد جورج ..

وما أن رفعت مائدة العشاء ، حتى انهمكت العمة كلو فى اعداد الكوخ للاجتماع الدينى الاسبوعى ، اذ اعتاد عبيد الضيعة والضياع المجاورة أن يفدوا للاستماع الى الوعظ والى بعض فصول من التوراة ، ثم يشتركون فى الترانيم ..

وبينما كان القوم فى هذا الاجتماع الدينى ، كان ثمة اجتماع آخر فى قاعة المائدة بدار المستر شيلبى .. حيث وقع السيد عقد بيع عبده المفضل توم والصبى هارى وهو يقول للنخاس : « أرجو أن تذكر يا هالى انك وعدت بشرفك أن لا تبيع توم ما لم تطمئن الى الايدى التى ستسلمه اليها .. فما دفعنى الى التخلى عنه سوى الظروف التى تعلمها حق العلم ! »

❋

◆ وفى ذلك المساء ، ما أن خلت مسز شيلبى الى زوجها حتى سألته : « من ذلك الوضيع المنبت الذى استضفته اليوم يا آرثر ؟ »

ولم يجد بدا من أن يصارحها بأنه باع « توم » و « هارى » للنخاس ، تحت وطأة الديون ، فهتفت :

ـ ماذا ؟٠٠ عزيزنا توم ، التقى الوفى ، الذى خدمك مخلصا مذ كنت صبيا ؟٠٠ ألم تعده على العكس بأن تمنحه حريته ؟٠٠ لقد حاولت جاهدة أن أقوم بواجبى نحو هؤلاء التعساء السذج ، فكيف أرفع رأسى بينهم بعد اليوم ؟٠٠ لقد علمتهم أن يرعوا روابط الاسرة ، والزوجية، والبنوة، فكيف أحتمل هذا الاعتراف الصريح بأننا لا نرعى رابطة ، ولا واجبا ، من أجل المال ؟٠٠ وكيف تصدقنى « اليزا » وهى ترانا ننقلب عليها ونبيع ابنها ؟ ٠٠ هذه هى النقمة التى صبها الله على الاسترقاق ٠٠ نقمة على السيد ، ونقمة على العبد ٠٠ انها لخطيئة أن نقتنى العبيد فى ظلال قانوننا كقانوننا ٠٠ وان قساوستنا لاعجز من أن يقوموا الشر ، فهم ينقلبون الى تبريره والدفاع عنه !

وكانت « اليزا » فى الخارج تسترق السمع وقد شحب وجهها ، وأخذت فرائصها ترتعد ٠٠ ثم تسللت الى غرفتها ، فانحنت على صغيرها الذى كان ينام وادعا ٠٠ ولم تذرف دمعة واحدة ، ففى مثل تلك المحن لا تبكى العيون دمعا ، وانما تنزف القلوب دما ٠٠

وتناولت « اليزا » قلما وورقة فخطت لسيدتها بضع كلمات تودعها ، ثم جمعت ثياب صغيرها وبعض لعبه فحملتها وحملته، وانطلقت من البيت فى هدوء ، حتي بلغت كوخ العم توم ، فطرقت نافذته برفق ٠٠ وجزعت العمة كلو اذ رأتها ٠٠ وبهت توم اذ سمعها تروى ما كان من أمر بيعه وطفلها ، واعذار السيد ، واعتزامها الفرار !٠٠ وأهابت كلو بزوجها أن يفر هو الآخر ، ولكنه قال : « **لا ٠٠ دعى اليزا تهرب ، فهذا حقها ٠٠ أما أنا ، فلأبع اذا لم يكن ثمة بد من بيعى ٠٠ لقد اعتاد السيد ان يجدنى دائما طوع أمره ، وساظل كذلك ٠٠ قط ما خنت**

ثقته ، ولا استغللت ما منحنى من امتياز ، ولن أفعل اليوم ٠٠ لخير لى أن أباع ، من أن تباع المزرعة وما عليها ! »

✥

لم تكد مسز شيلبى تعلم بفرار « اليزا » فى الصباح التالى، حتى هتفت فى ارتياح : « الحمد لله ! » ٠٠ فصاح زوجها : « كيف تقولين هذا أيتها الزوجة ؟٠٠ ان فرارها يضعنى فى موقف حرج ، فقد يظن « هالى » اننى ساعدتها على الفرار انقاذا لابنهـــا ! »

ومع ان ثورة « هالى » حين علم بالحادث قد أحنقت شيلبى ، الا أنه أوفد معه عبدين ، وأعاره جوادا ، لينطلق فى مطاردة الهاربة ٠٠ واحس العيدان « سام » و « آندى » أن مولاتهما تتمنى أن تنجو « اليزا » من مطارديها ، فراحا يعوقان المطاردة بحيل وأساليب بادية السذاجة والبراءة ، لا يجد فيها أحـد مأخذا عليهما ٠٠

✥

◆ **لم** يكن على ظهر البسيطة أشقى من « اليزا » حين بارحت كوخ العم توم ٠٠ كانت وحيدة ، لا حامى لها ولا نصير ٠٠ تحدق الاخطار بزوجها ، وبطفلها ، فتدفع ساقيها الى الاسراع ٠٠ وكان حبها لمولاتها يثقل قدميها أحيانا ، فتنبرى عاطفة الامومة تجاهده ٠٠ وكان الجليد يتهشم تحت قدميها فترتعد ٠٠ وظلال أوراق الشجر المتساقطة تفزعها ، وتوحى اليها بأن القوم فى أثرها ، فتهتف من أعماق فؤادها : « ساعدنى يا رب! ٠٠ أنقذنى يا رب ! »

وكان همها الاول أن تبلغ نهر « أوهايو » ٠٠ وحوالى غروب شمس ذاك اليوم ، أفضى بها السير الى قرية على ضفته ، فسارت الى حانة تشرف على الشاطىء وهي مضناة ، منهـوكة القوى ، مشققة القدمين ٠٠



وروعهـــــا أن استبانت أن الجليد الذى كان يكسو سطح النهر قد بدأ يذوب مع بشائر الربيع ٠٠ وان القوارب لم تعد تجرؤ على اجتياز النهـر قبل أن يذوب الجليد كله ٠٠

وهمت أن تستريح ريثما تتدبر وسيلة ٠٠ ولكنها سرعـان ما انتبهت الى ثلاثة يفـدون على الحانة ، فاذا بها تتعرف فيهم على « هالى » و « سام » و « آندى »!

٠٠ وجن جنـونها ، فاختطفت صغيرها من مرقده وهرعت متسللة من الباب الخلفى للكوخ ٠٠ وأوشك المطاردون أن يلحقوا بها عند حافة النهر ٠٠ وفى غمرة الذعر والقنوط ، قفزت الى احدى كتل الجليد الطافية ٠٠ وأخذت تتنقل من كتلة الى أخرى ، لا تكاد ترى شيئا ، حتى أحست بيد تنتشلها عند الضفة الاخرى من النهر ، وكأنما أرسل الله صاحبها خصيصا لنجدتها ، فسرعان ما تبينت فيه صـاحب مزرعة صغيرة قريبة من ضيعة شيلبى ٠٠

وأنصت الرجل الى قصتها فى اكتئاب ، حتى اذا انتهت ، أشار لها الى بيت أبيض كبير فى نهاية القرية وقال : « ليس فى وسعى أن أساعدك كثيرا ، ولكن فى هذا البيت قوما طيبين لن يبخلوا بعون »

وسارت الى البيت موجسة ، مترددة !

*

◆ **أما** « هالى » فارتد محنقا الى الحانة التى على الضـفة الاخرى للنهر ٠٠ واذا به يلتقى فيها بزميلين من النخاسين ،

أحدهما ضخم ، بادي القسوة ويدعى « لوكر » ، والآخر قمىء خبيث اسمه « ماركس » ..

وروى هالى للزميلين مغامرة « اليزا » ، فقال « لوكر » : « اننى حين أبتاع جارية ذات ولد ، أبادر فألوح لها بقبضة يدى قائلا : « اذا احتججت أو فهت بكلمة هشمت وجهك .. ان ابنك ملك لى وليس لك ، وسأبيعه فى أول فرصة ، فحذار أن تنبسى بكلمة واحدة ، والا جعلتك تتمنين لو أنك لم تولدى ! »

وأفضى بهما الكلام الى مساومته .. فقد اقترح لوكر وماركس أن يتوليا مطاردة اليزا ، فان أمسكا بها ، كانت لهما ، وردا الطفل الى « هالى » .. وراود « هالى » الطمع ، فحاول أن يحصل منهما على نصيب من الربح الذى يجنيانه من وراء الجارية ، ولكنه انتهى الى أن دفع لهما صاغرا خمسين دولارا لكى يسترد الطفل ..

*

وكان البيت الذى لجأت اليه « اليزا » بيت عضو فى مجلس الشيوخ ، عاد الى أسرته بعد جلسة صاخبة ناصر فيها قانونا يحرم على الناس مساعدة العبيـــد الهاربين من ولاية « كنتكى » ..

وصاحت مسز « بيرد » ـ زوجته ـ مستنكرة وهو يحدثها عن القانون : « **هل تظن يا جون أن مثل هذا القانون صائب ، يتمشى مع تعاليم المسيحية !.. انه مخجل ، خبيث ، فظيع !.. لن أتورع عن خرقه فى أول فرصة تسنح لى .. ان التوراة تأمرنا باطعام الجائع ، وكسوة العارى ، ومساعدة من يعانون ضيقا ..** »

وفى غمرة الجدل ، أقبل خادم يدعو السيدة الى المطبخ .. وهنالك ، ألفت « اليزا » منهوكة القوى ، ممزقة الثياب ، تكاد أطرافها تتجمد من القر .. وعنيت السيدة الرحيمة بالجارية وابنها .. وتناسى المستر « بيرد » قانونه ، وراح يوصى زوجته

بأن تخلع على المسكينة وطفلها بعض الثيــاب !٠٠ حتى اذا طعمت « اليزا » واستراحت ، تذكر عضو الشيوخ قانونه ، وبدأ القلق يشتد به خوفا من أن تكتشف الهاربة فى داره !٠٠ ثم خطر له حل : لقد نزح أحد معارفه ـ ويدعى «فان ترومب» ـ من ولاية « كنتكى » الى ولاية « أوهايو » ، فأعتق كل رقيق بيته، وأقام فى غابة قريبة ٠٠ ومن ثم ففى وسعه ايواء الهاربة وابنها !

وفى ظلمة الليل البهيم ، صحب مستر « بيرد » اللاجئة وطفلها فى طريق وعرة الى مقر « فان ترومب » ، فعهد بها الى رعايته ٠٠

- ٢ -

◆ **كان** صباح ذلك اليوم من فبراير معتما ، والرذاذ لا يكف عن التساقط٠٠ وجلس العم توم فى كوخه والتوراة على ركبتيه، ولكنه لم يكن يقرأ ، لا ولم يتكلم ٠٠ وما لبث أن سار فى هدوء الى حيث كان أطفاله نائمين ، وتمتم : « انها آخر مرة ! » ٠٠ ولم تجب العمة « كلو » بل انخرطت فى النحيب ، وهى تتساءل عما تكون عليه حاله حيث يساق ، فقال : « ان الرب واحد هنا وهناك ٠٠ وقد أسلمت نفسى لله ، ولن يصيبنى الا ما كتب لى»

وأيقظت كلو أبناءها فتناولوا آخر فطور مع أبيهم ٠٠ ثم أقبلت مسز شيلبى محزونة آسفة ، تودع توم وتعده بأن تسترده ـ أينما كان ـ اذا ما توفر لديها المال ٠٠

وتبع توم تاجر العبيد حين حضر ، فصعد الى عربته فى استخذاء ، واذا « هالى » يحيط ساقيه بأصفاد ، فسرت فى العبيد الذين تكأكأوا لوداعه ، موجة استياء !٠٠ ولكن « هالى » لم يحفل ، ولم يخجل ، بل انه لم يلبث أن أوقف العربة أمام حانوت حداد على مبعدة أميال من القرية ، ليصلح قيدين حديديين كي يناسبا يدى توم !

وفيما كان الحداد منهمكا فى العمل وهو مشفق على العبد المسن ، اذا بالفتى جورج شيلبى يلحق بالعربة على صهوة جواده، فيقفز محتضنا توم وهو يبكى ويستنكر ما أتى أبوه ، والعبد يسرى عنه ٠٠ وما أن عاد هالى بالقيدين فأحاط بهما رسغى توم حتى انفجر جورج فيه : « الا تخجل من ان تقضى العمر تشترى الرجال والنساء وتقيدهم بالسلاسل كالمواشى ؟٠٠ جدير بك أن تشعر بالضعة !٠٠ اننى لاخجل اليوم من أننى من أبناء كنتكى »

*

◆ **فى** عصر يوم يهطل فيه رذاذ المطر ، هبط مسافر من عربته أمام فندق ريفى فى بلدة صغيرة فى ولاية « كنتكى » ٠٠

ولاحظ الغريب ـ بعد أن استقر ـ فريقا من القوم يتجمعون حول اعلان كبير فى وسط قاعة الشراب ، فنهض ومضى يقرأ الاعلان ٠٠ فاذا به عن عبد هارب وعد مولاه من يأتيه به حيا أو ميتا بمكافأة سخية !٠٠ وقرأ الرجل الاعلان بامعان فاذا بأوصاف العبد تنطبق على « جورج هاريس » ٠٠ وكان يعرفه ، لانه هو لم يكن سوى صاحب مصنع الاكياس الذى استأجر العبد الذكى يوما ، وأفسح له الفرص ليخترع الآلة التى أوغرت صدر مولاه عليه ٠٠

وفجأة ، أقبل على المشرب شخص طويل القامة، أسمر البشرة، تنم سيماه عن أصل اسبانى عريق ، فطلب جناحا فى الفندق ٠٠ وتفرس فيه المستر « ولسون » ـ صاحب مصنع الاكياس ـ فخيل اليه أنه يعرفه٠٠ وأجاب السيد الاسبانى الاصل بنظرات مماثلة ، ثم تقدم اليه وسأله : « ألست مستر ولسون ؟ ٠٠ أريد أن أحدثك فى بعض الاعمال » ٠٠

وصحبه الى الجناح الذى أفرد له ، حتى اذا صرف تابعه وخدم الفندق ، تحول فأغلق الباب ودس المفتاح فى جيبه ، ثم

التفت اليه ، فحدق فيه الرجل ثم هتف فجأة : « يا لله ٠٠ جورج ! »

ذلك ان النزيل الانيق لم يكن سوى ٠٠ جورج هاريس ! وقد ساعده ما ورث عن أبيه السيد الابيض من ملامح ، على أن يستخفى فى هيئة السادة ٠٠ وقال ولسون : « ان الواجب يدعونى الى أن أقول لك يا جورج انك بفرارك من سيدك الشرعى خرجت على القانون والوطن »

فصاح جورج بمرارة : « الوطن ؟٠٠ أى وطن لى غير قبرى؟ ٠٠ لا تعظنى بالتوراة ، فالدين لمن فى ظروفى لا يجدى ٠٠ اننى أرفع أمرى الى الله تعالى وأسأله : هل من الذنب أن أسعى لحريتى ؟ »

وحاول مستر ولسون أن يجادله ، ولكن هذا قال : « أى وطن لى او لاحد ممن انجبتهن الجوارى المستعبدات ٠٠ واى قوانين تقيدنا ؟٠٠ ألستم تقولون ان الحكومات تستمد سلطاتها من رضى المحكومين ؟٠٠ ألا أنظر الى ٠٠ ألا ترانى انسانا مثلك تماما ؟٠٠ لقد كان لى أب من أشراف كنتكي وسادتها ، ولكنه لم يعن بى اطلاقا ٠٠ وعندما مات ، بيعت أمى وأولادها السبعة مع ما بيع من ممتلكاته !٠٠ »

وروى له كيف بيعت اخواته الست متفرقات أمام عينى أمه !٠٠ حتى اذا حان دوره ـ وكان أصغر أبنائها ـ ركعت عند قدمى واحد من أتباعه وتوسلت اليه أن يشتريها معه ، فركلها بحذائه ٠٠

وابتاع مولاه أخته الكبرى ٠ وكانت تقية ورعة ، ففرح فى البداية ، ثم سمع السياط تهوى على جسدها اذ أبت أن تفرط فى تعاليم الدين ٠٠ ورآها تغل بالسلاسل مع فريق من العبيد ليرسلوا الى سوق النخاسة ٠٠ ومضى قائلا : « وكبرت ولا أب لى ولا أم ولا أخت ٠٠ لا أحد لى فى الحياة ، ولا شىء سوى

السياط ، والزجر ، والجوع ٠٠ كنت أفرح اذا أصبت عظمة مما يلقى للكلاب ٠٠ وكنت أبكى فى بهيم الليل لا من الجوع ، ولا من أثر السياط ، وانما حنينا الى أمى وشقيقاتى » ٠٠

وروى له قصة زواجه ، وكيف أراد مولاه أن يتحكم حتى فى روابط الزواج ، لان القانون يخول له ذلك ٠٠ وكانت الدموع تنهمر من عينى الرجل وهو ينصت ٠٠ ودفع اليه بحزمة من الاوراق المالية يستعين بها ، ولكن الشاب أبى أن يأخذها الا كدين يرده له عند الميسرة ٠٠

وقال الرجل : « انك ترفع رأسك وتتكلم وتتحرك كأى سيد ! » ، فأجاب جورج : « أجل ٠٠ لاننى ٠٠ حر ! »

*

◆ **عرج** « هالى » فى طريقه الى الجنوب على « واشنطن » حيث شهد مزايدة لبيع الرقيق ٠٠ وكان بين المعروضين فتى فى الرابعة عشرة احتضنته أمه العجوز ، فلما ابتاعه « هالى » ، توسلت اليه العجوز أن يبتاعها هى الاخرى ، ولكنه رفض فى جفاء وغلظة ، ثم أمر فانتزع الغلام منها عنوة وقيد فى أصفاد مع اثنين آخرين اشتراهما النخاس ٠٠ وان هى الا أيام حتى كان « هالى » وعبيده ـ وبينهم توم ـ على سفينة تمخر بهم عباب نهر « أوهيو » ٠٠

ورست السفينة يوما على بلدة صغيرة ، فهبط « هالى » الى البر ، وعاد بجارية أنيقة جميلة ، تحمل طفلا ٠٠ وكانت تظن أنها راحلة الى حيث تعمل فى البلدة التى يعمل بها زوجها ، كما أخبرها مولاها ، فلما صارحها النخاس بالحقيقة بعد اقلاع السفينة ، انخرطت فى البكاء ٠٠

ورأى أحد الركاب طفلها الذى لم يتجاوز منتصف الشهر العاشر من عمره ، فأعجب به ٠٠ وسرعان ما ابتاعه من «هالى»

بخمسة وأربعين دولارا ٠٠ وعندما رست السـفينة عند « لويزفيل » فى جوف الليل ، سرق النخاس الطفل الرضيع من أحضان أمه النائمة ، فحمله الرجل الذى اشتراه وتسلل الى البر ٠٠

واذ استيقظت الام فلم تجد وليدها ، تولاها ذهول ، كأنه الغاشية ٠٠ وكان توم يرقب ما يجرى وهو مستغرق فى قراءة التوراة ، ومناجاة ربه ، وقلبه يتمزق ٠٠ وفى أطواء الليـل البهيم ، سمع نشيجا خافتا مكتوما ٠٠ ثم صوت ارتطام جسم بسطح النهر ٠٠ واضطرب الماء ثم أخلد الى السكون ٠٠ وأدرك توم ما جرى وهو محزون ٠٠

لقد ذهبت الفتاة تبحث عن الرحمة فى قلب النهر بعد اذ افتقدتها فى قلب الانسان فلم تجدها ٠٠

ولم يدهش النخاس أو يصدم حين كشف الامر ، فقد اعتاد أن يرى الموت يختطف بعض بضاعته ٠٠ كل ما فعله أن تحول يثبت الخسارة فى دفتر حساباته !

*

◆ **نحن** الآن ازاء منظر بهيج ٠٠ كانت « اليزا » تجلس فى مطبخ انيق ، نظيف دافىء ، و « هارى » يلعب عند قدميها ٠٠ والى جوارها سيدة عجوز ، يبدو البشر والطيبة على وجهها ٠٠

كانت تلك الدار احدى الدور فى قرية « الكويكرز » ، حيث نعمت اليزا بالعيش فترة بعـد فرارها ٠٠ وحظيت « اليزا » و « هارى » فى تلك الدار برعاية ومحبة لم يحلما بهما يوما من الايام ٠٠ وكأنما شاء القدر أن يتم صنيعه فاذا « جورج » يصل الى المستعمرة ذات مساء مع قافلة من العبيد الهاربين الذين كانوا يعرفون أن العون فى انتارهم فى المستعمرة دائما ٠٠

وكان الصباح التالى من أبهج ما شهدت ضيعة « الكويكرز » فى ولاية انديانا ٠٠ كان الجميع منصرفين الى خدمة مجتمعهم

فى تعاون مثالى ، حتى اذا أعدت مائدة الافطار ، التفوا حولها ، مترقبين ٠٠ وما ان ظهر جورج واليزا وهارى حتى استقبلوهم بترحاب حار ، جعلهم يشعرون بأنهم يعيشـون فى حلم ٠٠ ولاول مرة جلس جورج الى مائدة واحدة مع قوم من البيض ، لا يشمئزون من وجـوده ، بل يغمرونه بفيض من الوداد ٠٠ وأحس أن هذا هو الوطن الحق الذى ينشده ٠٠ ونفذ الايمان بالله الى فؤاده وهو فى غمرة هذا الجو الذى تشيع فيـه التقوى والمحبة ٠٠

وسمع ابن شيخ المستعمرة يحاور أباه مسفها القانون الذى يحرم مساعدة العبيد الهاربين ، فاذا الاب يقول فى تسـامح الصالحين :

ـ ما ينبغى أن تتقول السوء عن حاكميك ٠٠ انما ينعم الله علينا بالخيرات الدنيوية لكى نعدل ونرحم ، فاذا كان حكامنا يطلبون ثمنا لذلك ، فعلينا أن ندفعه ٠٠ ولا بأس على من أن أدفع الغرامة أو أسجن كما يقضى القانون ٠٠

قال الفتى : « لشد ما أكره أرباب العبيد »

ـ كم أعجب لك يا بنى ٠٠ ان أمك لم تعن بتعليمك ٠٠ اننى أبذل من الخير لرب الرقيق مثلما أبذل للرقيق ، لو أن الله ساقه الى بابى ينشد عطفى ودى ٠٠

وهنا قال جورج فى قلق : « أرجو أن لا تكون معرضا لمتاعب بسببى »

ـ لا تخش يا جورج ، فانما خلقنا فى الدنيا لهذا ٠٠ وما لم نشق من أجل الخير ، لمـا استحققنا أن نكون بشرا ٠٠ انما نبذل ما نبذل لله والانسان ٠٠ ولسوف نقلك وبقية الجماعة فى العاشرة من هذا المساء الى المحط التالى ، فان متعقبيك جادون فى أثرك ، فلا ينبغى اضاعة الوقت

- ٣ -

وكانت شمس الغروب الباهتة تترنح فى نهاية ذات يوم على سفينة انسابت فى تؤدة متثاقلة على صفحة المسيسبى، اذ كانت محملة بكميات هائلة من بالات القطن ٠٠ وجدير بنا أن نلقى نظرة على القوم الذين كانوا على ظهرها ، لان لنا بينهم صديقا متواضعا قديما . انكمش بين بالات القطن على السطح العلوى ، يقرأ التوراة حينـــا ٠٠ ويسرح بصره الى القرى التى كانت تتناثر على الساحل البعيد ، حينا آخر ٠٠ انه « توم » ، الذى استطاع بصلاحه وبساطته وصراحته أن يلين قلب النخـــاس الجاحد « هالى » فاطمأن اليه ، وتركه يروح ويجىء على سطح السفينة كيف شاء ٠٠

وكانت تتراءى له أكواخ العبيد فى القرى التى تمر بهـا السفينة ، فيرتد به الخاطر الى ضيعة « شيلبى » ، ثم الى الكوخ الانيق ، النظيف ، الدافىء ، حيث كانت زوجته كلو وأولادهما الثلاثة ، فيذكو الحنين فى قلبه الكبير ، ثم تستحيل أشواقه الى قطرات من دموع تهطل على صفحات التوراة ٠٠

ولم يكن يسرى عنه سوى مرأى بنت صغيرة فى حـــوالى السادسة من عمرها ، كانت مع أبيها ـ وهو سيد مثر عريق الاصل يدعى سانت كلير من (نيو أورليانز) ـ وكانت لا تكف عن اللعب والضحك والتنقل بين أركان المركب ٠٠ كانت آية فى الجمال ، والبراءة ، والسذاجة ، فهفا اليها قلبه بكل ما فى عنصره من فطرة طيبة ، ساذجة ، تجعل الزنوج دواما يشغفون بالاطفال ٠٠ وكانت فى جعبة توم ألاعيب كثيرة تســتهوى الاطفال ، فسرعان ما مالت الصبية اليه ، وأنبأته بأنها تدعى « ايفانجلين سانت كلير » وان كان الجميع ينادونها « ايفا »٠٠ وعلمت أنه يدعى « توم » ، وقد كان الاطفال ينادونه « العـم توم » ، فحلا لها أن تناديه بهذا اللقب هى الاخرى ٠٠

وتوقفت السفينة فى مرساة صغيرة لتحمل خشبا٠٠ وكانت

« ايفا » تقف مع أبيها عند سياج السطح العلوى ·· وفجأة تحركت السفينة ، **فاذا الصغيرة تفقد التوازن وتهوى فى الماء ·· وطفت مرة ، ثم غاصت ·· وهم أبوها أن يتبعها فأمسكت به يد ملاح قوى ·· وتصادف أن كان توم فى الطابق الاسفل ، ورأى ما حدث، فاذا به يقفزخلف الفتاة ويغوص حيث غاصت، ثم ·· يعود بها ··**

وكان هذا الحادث سببا فى أن شهد اليوم التالى اجتماعا بين السيد « سانت كلير » و « هالى » من أجل توم ·· وما أن علم النخاس ان الصغيرة تتشبث بشراء العبد ، حتى مضى يغلو فى تقدير ثمنه ·· وكاد السيد أن يتحول عن الصفقة ، لولا أن « ايفا » قالت له : « ابتعه يا أبى ·· ان لديك الكثير من المال ·· وأنا أريده ! »

فسألها مداعبا : « ولماذا يا صغيرتى ؟·· أهو ألعوبة ؟ »

وفى سذاجة الطفولة أجابت : « بل لاننى أريد أن أسعده »

وهكذا ابتاع « سانت كلير » العم توم

*

◆ **كان** «أوجستين سانت كلير» ابن مزارع مثر من لويزيانا، ينحدر أصله من كندا ·· وقد أوتى منذ طفولته شعورا مرهفا ، وشخصية حساسة ، ورقة لم تلبث الايام أن استبدلت بها خشونة الرجولة ·· وما أن انتهى من دراسته ، حتى وقع فى هوى جارف ·· لكن حسناءه غدرت به وآثرت عليه رجلا آخر ، فدفعته كرامته المهدرة الى الانتقام لحبه المنبوذ ·· فلم ينقض اسبوعان حتى تزوج من حسناء أخرى فاتنة ، خلابة الجمال ··

ولقد عهدنا العشاق الذين تتحطم قلوبهم يموتون فى الروايات ·· أما فى الحقيقة ، فان الذى يموت هو تألق حياتهم وبهجتها ·· وفيما عدا ذلك يظلون أحياء ، يفعلون ما يفعله الاحياء ·· ولو أن « مارى سانت كلير » كانت امرأة قديرة ، لاستطاعت

أن تبعث بهجة الحياة فى نفس أوجستين ٠٠ ولكنها كانت على النقيض ، مدللة ، غير مرهفة العاطفة ، ولا متيقظة الحساسية ٠٠ وزاد الامر سوءا أن صحتها اعتلت بعد مولد طفلتهما ٠٠ وعلى العكس منهـــا ، استيقظت العواطف الخامدة فى قلب أوجستين لمولد « ايفـا » ، فراح يحبوها بفيض من الحب والحنان أوغر صدر زوجتـه ، فلم تزدد نحوه الا فتورا ٠٠ وتجمع الضعف الجسمى والذهنى فلم يلبثا أن أحالا « مارى » الزوجة الفاتنة الخلابة ، الى امرأة دائمة المرض ٠٠ بل الى حطام يشقى بالحياة !

ورأى سانت كلير ابنته تنشأ ضعيفة رقيقـة ، فخشى أن تضيع صحتها على مذبح اهمال أمها ٠٠ لذلك صحبها فى رحلة الى « فرمونت » ، حتى اذا آن له أن يعود بها أغرى ابنة عم له ، عانسا فى الاربعين ، على أن تصحبهما كى تعنى بداره وطفلته ٠٠ وكانت « مس أوفيليا » - ابنة العم - لم تغادر فى حياتها مزرعة أبيها، فطاب لها هذا التحول ٠٠ سيما وقد كانت نشطة، حادة ، حاسـمة فى كل شىء ٠٠ تعيش على حب النظـام ، والترتيب ، والدقة ٠٠ وكانت أكبر الخطايا فى نظرها هى « التقاعس » و « التوانى » و « الجمود » ٠٠

وبلغت السفينة « نيو أورليانز » أخيرا ، فهبط « سانت كلير » و « ايفا » والعمة « أوفيليا » ٠٠ وتوم !٠٠ وسرعان ما أقلتهم عربة السيد - التى كانت تنتظرهم فى الميناء - الى قصر عريق ، واسع الارجاء ، بنى على الطراز المراكشى القـديم ٠٠ وكان فى استقبال السيد عند هبوطه من العربة فى السـاحة الداخلية للقصر زنجى شاب فى ثياب فاخرة ، بدا من تصرفاته انه صاحب الامر والنهى فى عبيد السيد وخدمه !

وكانت ايفـا فى تلك الأثناء قد تسـللت وأسرعت الى قاعة صغيرة تطل على الشرفة ، فنهضت لاستقبالها امرأة طويلة عجفاء ٠٠ وارتمت الفتاة عليها تقبلها وهى تردد : « أماه ! » ٠٠

فقبلتها المرأة وقالت : « كفى يا صغيرتى ٠٠ لا تصدعى رأسى ! »

هكذا كانت « مارى » نشازا فى اللحن السعيد الذى كان يغمر دار « سانت كلير » ٠٠ كان الرجل مرحا بطبعه ، كريما ، لطيفا مع من كانوا يملأون داره من عبيد ٠٠ أما زوجته فكانت أنانية ، جعلتها حالتها النفسية التعسة عبدة لامراض وهمية أوغرت صدرها على العالم ، وعلى خدمها فى المقدمة !٠٠ سألتها ابنتها يوما : « لم تستبقون العبيد يا أماه ؟ » ، فأجابتها : « لست أدرى ٠٠ انهم ينغصون حياتى » ٠٠ وعندئذ انبرى لها « سانت كلير » يذكرها بتفانيهم فى خدمتها ، وفى مقدمتهم تلك الجارية التى كانت أثيرة لدى « ايفا » والتى كان الجميع يسمونها « ماما » ٠٠ فقالت :

ـ انها نافعة حقا ٠٠ ولكنها ذات أنانية بشعة ٠٠ أليس من الانانية أن تنام الليل كله وأنا فى حاجة الى رعاية فى كل ساعة منه ؟

وكانت « ماما » وصيفة لمارى منذ حداثتها، فلما تزوجت هذه انتزعتها من زوجها وطفليها واصطحبتها الى « نيو أورليانز » ٠٠ ومع ذلك فقد كانت فى نظرها ٠٠ أنانية !

وكثيرا ما كان موضوع الرق مثار نقاش كلما اجتمع سانت كلير وزوجته وأوفيليا ٠٠ وجلست « مارى » يوما تشكو الى ابنة عم زوجها كيف أن « ايفا » تعامل العبيد كأنهم سواء لديها، وتتهمها بأنها بذلك « تفسدهم » ٠٠ واستطردت قائلة : « ليس أجدى فى معاملة الخدم من أن نشعرهم بأنهم أقل منا ٠٠ اننى أترفق بهم عادة ، ولكن لا بد لنا من أن نلزمهم حدودهم ! »

وكانت « أوفيليا » تنصت واجمة ، مستنكرة ٠٠ حتى اذا مضت « مارى » تذكر كيف يجب أن يساط الزنوج اذا أخطأوا، قالت : « **ألا تعتقدين أن الله خلقهم مثلنا من لحم ودم ؟٠٠ أعتقد**

أن عليكم يا أرباب العبيد مسئولية خطيرة ، فخليق بكم أن تعلموا عبيدكم ، وأن تعاملوهم كمخلوقات ستقفون معهم جنبا الى جنب أمام الله ٠٠ »

وكان « سانت كلير » من ناحيته يستنكر الاسترقاق، ويصفه بأنه يقضى على القيم الاخلاقية لدى أبناء السادة البيض وأبناء العبيد على السواء ، فان قسوة البيض على الزنوج انما تزيد قلوب السادة جحودا ، وقلوب العبيد كراهية وبغضا ٠٠ بل انه كان يصف الجلد والسباب بأنهما كالمخدر للسيد وللعبد، يضطر المرء الى مضاعفة الجرعة كلما ازداد له ادمانا !

وكان توم قد اطمأن الى حياته الجديدة ٠٠ كانت « ايفا » الصغيرة تملأ حياته بهجة ، وتزداد به تعلقا ، حتى لقد مضت تساعده على اتقان القراءة والكتابة ٠٠ وكان « سانت كلير » يزداد كل يوم اعجابا بتقواه وصلاحه ، حتى لقد أخذ ــ تحت تأثره به ــ يميل هو الآخر الى العناية بالدين والتعبد بعد أن كان منصرفا عنهما !

ــ ٤ ــ

◆ **ولنعد** الآن الى ما كان من أمر « جورج هاريس » و« اليزا » فى ضيعة « الكويكرز » ٠٠ فعند الاصيل ، جلس الزوجان يتزودان بفيض من العواطف قبل أن يستأنف جورج رحيله ٠٠ ومضى يحدثها عن المستقبل الذى يرسمه لحياتهما وابنهما حين يستقر بهما المقام فى كندا ٠٠

وفى تلك الاثناء ، أقبل ابن رب الدار ومعه الدليل الذى كان يساعد العبيد على الوصول الى الحدود ، ويدعى « فنياس » ٠٠ وكان القلق يستبد بهما ، فلقد اكتشف « فنياس » مؤامرة من بعض الطامعين فى المكافأة التى رصدها مولى « جورج » لمن يأتيه به ، وكانوا قد أوعزوا الى ستة من الاشقياء الاشداء بالتربص له فى الطريق المؤدى الى الحدود ٠٠

وقفز جورج مهتاجا ، متحفزا ، ففحص غدارتين كان يحملهما، ثم التفت الى مضيفه قائلا :

ـ لا أريد أن أستدرج أحدا منكم الى المتاعب ٠٠ كل ما أرجوه أن تعيرونى عربة ، وأن تصفوا لى الطريق الى المحط التالى ، ولسوف أجاهد فى سبيل حريتى ٠٠

فقال فنياس: « لا بد لك ياصديقى من حوذى خبير بالطريق، وأنا رجلك ٠٠ فتول أنت الجهاد ، وسأتولى أنا قيادة العربة »

واذ عجز جورج عن أن يثنيه ، قال : « **اننى لن أبدأ أحدا بالاعتداء ٠٠ كل ما أرجوه أن أغادر هذه البلاد بسلام ٠٠ لقد رأيت أختى تساق لتباع فى سوق النخاسة، ولن أرضى لزوجتى وابنى أن يباعا ٠٠ سأقاتل حتى آخر نفس قبل أن أرى زوجتى وابنى يؤخذان ٠٠ فهل ألام على هذا ؟** »

وبعد العشاء ، صعد الهاربون الى عربة يجرها فحلان من البقر ، فانطلقت على الطريق المكسوة بالجليد ٠٠ وكانوا خمسة : جورج واليزا والطفل ، وجيم ـ الذى كان يقوم بدور تابع جورج حين استخفى فى هيئة السادة ـ وأمه ٠٠

ولحق بهم المطاردون فى بقعة جبلية جرداء ٠٠ واستطاع « فنياس » ـ الخبير بكل شبر فى المنطقة ـ أن يأوى بالعربة الى حمي حافة صخرية ، وأن يقود المرأتين والطفل الى فجوة متوارية بين الصخور ٠٠ بينما تسلق جورج وجيم الصخور المشرفة على منحدر أقبل منه المطاردون ٠٠ وعلى ضوء الفجر الزاحف ، ظهر النخاسان « لوكر » و « ماركس » واثنان من رجال البوليس وبعض الاشقياء ٠٠ وتريث جورج وجيم حتى بلغ الزاحفون ممرا ضيقا ، ثم استوى أولهما واقفا فوق الصخور وصاح : « **أنا جورج هاريس ٠٠ أنا الآن حر ، أقف على أرض الله الحرة ، وأقرر أن زوجتى وابنى ملك لى ٠٠ ومعنا أسلحة ندافع بها عن أنفسنا وقد عقدنا العزم على الدفاع ، ولن**

يفلت من يجسر منكم على الصعود الينا ٠٠ اننا لا ندين لقانونكم، ولا لوطنكم ، بل نقف أحرارا تحت سماء الله ، مثلنا مثلكم تماما ! »

ولم يعبأ « لوكر » بانذار الشاب المستميت ، فأقبل يتسلق الى حيث وقف ٠٠ وتريث جورج حتى صار النخاس على مرمى منه ، ثم أطلق رصاصة نفذت فى جانبه ، فهوى لتتلقفه أغصان شجرة علقت بها ثيابه ، فتدلى جسده فى الهواء ٠٠ وانبعث أنينه عاليا ، فأسرع رفاقه يخلصونه ، ثم حاولوا اسعافه ٠٠ وجورج يطل عليهم من عل ٠٠ وشد ما كان عجبه اذ رآهم يخلفونه وراءهم وينطلقون عائدين من حيث أتوا ٠٠

*

◆ **كان** وجود توم وأوفيليا فى دار سانت كلير بداية حياة جديدة فى الدار ، اذ سرعان ما فطن ربها الى أمانة توم وحرصه على أمواله ، فسلمه معظم أموره ٠ وأخذت تقوى العبد وصلاحه يفعلان فى نفس السيد ما لم تفعله كتب الدين وعظات رجال الكنيسة ، فأقلع عن الشراب ، وأخذ يصلح من أحواله ٠٠

أما أوفيليا فقد روعها ما كان فى الدار من فوضى أطمعت الخدم فى كل شىء ، فأخذت بالحزم تصلح الامور والاوضاع ، وتفرض النظام والطاعة ، فما لبثت ادارة البيت أن سارت فى دقة الساعة ٠٠

وكانت تتردد على الدار جارية تحضر الخبز من ضيعة مجاورة ٠٠ وكانت حياتها مأساة ، فلقد قامت زمنا على تمريض مولاتها فى الضيعة من حمى خبيثة فانتقلت اليها العدوى ، وجف اللبن فى ثدييها ٠٠ وراح وليدها الرضيع يصرخ ليل نهار لفرط الجوع ، ولكن مولاتها ضنت عليها بقليل من اللبن لغذائه ، فمات وهو ماض فى صراخه !٠٠ وأقبلت الجارية التعسة على الخمر تنشد السلوان ٠ وأخذت تسرق من ثمن ما تبيع من

الخبز لتشترى خمرا ، فلم يكن من مولاهـــا الا أن ألقاها فى « بدروم » الدار وتركها حتى ماتت !

وسمعت أوفيليا هذه المأساة البشعة ، فهرعت الى سانت كلير مهتاجة المشاعر تسأله أن يفعل شيئا لدفع نقمة السادة البيض عن العبيد ، فقال لها : « ما الذى تتوقعين ؟ ٠٠ هذه طبقة مهيضة الجناح ، جاهلة ، وضعت دون قيد أو رعاية فى قبضة قوم هم الغالبية الساحقة فى دنيانا ٠٠ قوم لا يرعون ضميرا ولا ذمة »

وأخذ يبين لها كيف أن البيض ــ حتى رجال الدين منهم ــ لن يرتضوا أى تغيير فى الاوضاع ، لانهم كسالى ، مفسودون ، فهم حريصون على أن يشقى العبيد لينعموا هم ٠٠ ثم صاح فى يأس : « أؤكد لك أن لا سبيل الى الاصلاح ٠٠ لقـــد مرت بى أوقات وددت فيها لو غرقت هذه البلاد ليمحو الماء ما فيهـا من مظالم وشقوة ٠٠ مرت بى أوقات كنت ألعن فيها بلادى ، بل الجنس البشرى كله ! »

وروى سانت كلير كيف فتح عينيه على الحياة ، فاذا اللون سياج منيع يفرق بين البشر ٠٠ سياج دعمته التقـــاليد فلم يستطع أن يهدمه بمجهود فردى ٠٠ وألفى نفسه عاجزا عن أن يقاوم أمرا بدا كأن كل عناصر الطبيعة قد أجمعت على فرضه على الدنيا ٠٠ ولقد حاول أن يهيىء للعبيد فرصة العلم ، ولكن الغباء الذى فرضته عليهم الذلة والخضوع ، والكلل الذى كان يخلفه العمل الدائب ، جعلا الدروس أشبه بالبذور التى تلقى فى أرض مجدبة !

وانتهى من كلامه قائلا : « لست أدرى سوى أمر واحد ، هو أن ثمة بعثا يوشك أن يدب فى أوصال الطبقات المستعبدة ــ من رقيق وعمال ــ فى الدنيا بأسرها ٠٠ اننى أخال أن الزفرات والانين والعظام الرميم قد بدأت تحرك السماء ٠٠ لعل القيامة مقبلة ، أو يهبط مسيح الى الارض ! »

وعلى مائدة الشاى ، أخذ يروى كيف انه ابتاع مرة من أخيه عبدا كاد الاخ يبطش به ، فعمل على أن يعتقه ٠٠ ولكن العبد مزق وثيقة العتق وأبى أن يفارقه ، وتفانى فى خدمته حتى مات!

وكانت ايفا تنصت واجمة ٠٠ ثم ارتمت على صدر أبيهـــا باكية وقالت :

ــ أحس بهذه الاشياء تخترم قلبى يا أبت !

- ٥ -

على أن شئون السادة لا يجب أن تنسينا صديقنا المتواضع توم ٠٠ كان العبد فى هذه الاثناء قانعا ، راضيا ، لا يعكر صفوه سوى الحنين الى كوخه القديم وزوجته وأولاده ٠٠ وأشفقت عليه ايفا فأخذت تعلمه الكتابة ليبعث اليهم بأخباره ويتزود بأخبارهم ٠٠

وذات يوم فاجأ سانت كلير ابنة عمه بجـــارية صغيرة لم تتجاوز الثامنة ، ابتاعها لها خصيصا لتجرب فيهـــا ما كانت تطالب به من تعليم العبيد واصلاح نفوسهم ٠٠ وذهلت أوفيليا حين تبينت أن « توبسى » ــ الجارية الصبية ــ لا تعرف عمرها ٠٠ بل لا تعرف لها أما ٠٠

وسألتها مشدوهة : « اذن ، كيف ولدت ؟٠٠ ألم تسمعى عن الله ؟٠٠ ألا تعرفين من الذى خلقك ؟ » ٠٠ فأجابتها : « لا أحد ٠٠ أعتقد اننى نموت هكذا ٠٠ لم يصنعنى أحد ! »

وأخذت « توبسى » تستجيب لتوجيهات أوفيليا فى توجس وحذر ، فما عهدت من قبل عطفا ، ولا تذوقت حنانا ٠٠ ولقيت أوفيليا أشد العناء فى ردعها عن الكذب والخبث والخداع ، التى تأصلت فى نفسها نتيجة ما لقيت فى أعوامها الاولى من اهمال وقسوة وظلم !

ولكن الشيء الذى أعيا أوفيليا حقا هو صرف الصبية عن السرقة ٠٠ فقد كانت تسطو دائما على كل ما تقع عليه يداها !

٠٠ وذات يوم سرقت بعض أشياء ، فاقترحت جارية أن تساط عقابا لها ٠٠ واذا « ايفا » تصرخ محتجة ، ثم خلت الى «توبسى»: طفلتان تمثلان عنصرين على طرفى نقيض : فالاولى شقراء ، عريقة المنبت ، طيبة التربية ، سامية الخلق والروح ٠٠ والثانية سوداء ، وليدة أجيال من الظلم والجهل والكدح والشر ٠٠ وكانت تدور فى خاطر ايفا أفكار لم تدر كيف تعبر عنها ، فسألتها فى اشفاق : « ما حاجتك الى السرقة ؟٠٠ انى على استعداد لان أهبك أى شىء من متاعى بدلا من أن تسرقيه ! »

وحركت القلب الجاهل الجاحد لهجة الاشفاق البرىء! ولاحظت أوفيليا بعد ذلك أن ميل ايفا الى الصبية الزنجية يشتد ٠٠ وأخذت بتوجيهات سانت كلير تلقن «توبسى» الدين ، وتشجعها على قراءة التوراة ، وتدربها على أعمال البيت والاشغال اليدوية ٠٠

*

◆ **ولنلق** الآن نظرة أخرى على كوخ العم توم فى ضيعة شلبى فى « كنتكى » ٠٠ كان الكوخ موصدا ، وأولاد العبد المسن يرتعون فى البيت دون أن تحوطهم رعاية أمهم « كلو » !٠٠ فقد سمعت الزنجية يوما حوارا بين مولاتها ومولاها فهمت منه أن ديون مستر شيلبى تحول بينه وبين شراء توم واستعادته ، وقد هددته زوجته بأن تكسب الثمن بتدريس الموسيقى لبعض الاسرات !٠٠ واذ ذاك اقترحت « كلو »أن تؤجر لمحل يصنع الحلوى فى « لويزفيل » كى يدخر أجرها لتحرير زوجها ٠٠ وتركت أولادها فى حمى السيد وزوجته !

٠٠ أما « توم » ، فقد انقضى عليه عامان وهو قانع بحياته ، لا يعذبه سوى الحنين الى الاعزاء الذين فارقهم ٠٠ ولكنه كان يتعزى بالصبية « ايفا » التى غدت بهجة حياته ٠٠ كانت تقضى الساعات الطوال فى صحبته ، تقرأ له الانجيل فى صوت عذب رخيم لم يشنف أذنيه مثله من قبل ٠٠ وما لبث وعى الصبية

وقلبها أن تفتحا على معان كانت توقظ فى أعماقها حنينا عجيبا، ومشاعر قوية مبهمة كانت تستعذبها ٠٠ وحدثته يوما عن العالم الآخر ، وكان وهج الشمس الغاربة ينعكس على السحب :

ـ اننى أكاد أراه ٠٠ تأمل هذه السحب ، لكأنها أبواب من لؤلؤ خلفها عالم من ذهب ٠٠ انى لارى السماء أيها العم توم ، وتواتينى فى المنام تلك الارواح الطاهرة ٠٠ لسوف أذهب الى هناك !

ـ الى أين يا مس ايفا ؟

فنهضت الفتاة وأشارت الى السماء ، وقد انعكس وهج الشفق على شعرها الذهبى وخديها المتضرجين فبدت محوطة بتألق سماوى ٠٠ وقالت :

ـ اننى ذاهبة الى هناك يا توم ٠٠ الى الارواح المشرقة ٠٠ عما قريب !

وخفق القلب المسن فجأة ٠٠ وقفز الى خاطره ما كان يلاحظه منذ شهور ستة من أن الصغيرة كانت فى هزال مطرد ٠٠ وما سمعه من « مس أوفيليا » عن ذلك السعال الذى أنشب أظافره فى صدرها لا تقوى الادوية على تخليصها منه ٠٠ وما رآه من احمرار خديها وكأن بهما وقدة محمومة ٠٠ وفعلا ، كانت أوفيليا وابن عمها يرقبان الصبية فى قلق وانزعاج ٠٠ وأخذت أحوال « ايفا » تتطور تطورا غريبا ٠ كانت تزداد عطفا على العبيد والجوارى ، ولا تفتأ تصرح بأنها تود لو أوتيت المال لتحررهم وتعلمهم !

٠٠ وكان هزالها فى اضطراد ٠٠ وكل العوارض تدل على أن الداء قد استشرى وأخذ يفتك بها سريعا ! ٠٠ وأدركت الصغيرة من كثرة تردد الطبيب عليها ، ومن ازدياد حدب أهل الدار واسرافهم فى العطف والحنان ، أن نهايتها تقترب ٠٠ فلم تجزع من الموت ، اذ كان قلبها مفعما بالحنين الى ذلك العالم

السماوى الذى قرأت عنه فى الانجيل ٠٠ ولكنها كانت تشعر باشفاق حزين على كل من ستخلفهم وراءها : كانت تحب أباها وأمها وتأسى لما سيصيبهما من حزن من أجلها ٠٠ وكانت تحب الخدم المخلصين الذين شغفوا بها ٠٠ وكان عقلها يسبق سنها فى النمو ، فأخذت تتوق لان تفعل شيئا من أجلهم ٠٠ قالت يوما وهى تقرأ الانجيل للعم توم : « اننى أدرك لماذا أراد المسيح أن يموت من أجلنا ٠٠ لاننى أشعر بنفس الرغبة ٠٠ لست أدرى كيف أعبر لك ، ولكننى مذ رأيت أولئك التعساء الذين كانوا مكبلين بالاغلال على ظهر السفينة وعرفت أن منهم من فارقوا أزواجهم ٠٠ ورأيت الاطفال يبكون أمهاتهم ، شعرت بأننى أقبل الموت مبتهجة ، لو أن موتى محى شقوتهم ! »

وقالت لابيها فى ذلك اليوم وهو يضمها فى وجد : « **لدى أشياء أريد أن أقولها لك قبل أن أزداد ضعفا ٠٠ ان الوقت يقترب كى أفارقكم ٠٠ سأذهب ولن أعود أبدا ٠٠ لا تحاول أن تخدعنى ٠٠ لست خائفة ، ولا محزونة ٠٠ ولولاك ومن أحب لتمنيت لو كنت فى السماء من زمن ، فان هنا أشياء كثيرة تبعث الحزن فى نفسى ٠٠ اننى حزينة من أجل خدمنا ، وأود لو يتحررون يا أبت ٠٠ تصور مآلهم لو أصابك ضر ٠٠ ان ما يضايقنى هو أنك تتمنى لو اننى أعيش سعيدة لا أعانى ألما ، فى حين أن أولئك المساكين يعيشون حياتهم كلها فى أسى وألم ٠٠ أليس من وسيلة يا أبتاه لجعل العبيد جميعا أحرارا ؟** »

فهتف الوالد الملتاع : « حسبك ٠٠ كفى عن الكلام عن الموت وأنا أحقق لك كل رغبة تبدينها ! »

— اذن عدنى يا أبت أن ينال « توم » حريته بمجرد ٠٠ أن أموت !

ووعدها الرجل ٠٠ وضمها الى صدره فى أسى صامت مكبوت

- ٦ -

◆ **كانت** « أوفيليا » فى أشد حالات الانفعـــال ، اذ ألفت « توبسى » قد سرقت احدى قبعاتها فقطعتها لتعد ثيابا لعرائسها! ٠٠ وفيما هى فى ثورتها عليها صحبت « ايفا » الفتاة فى صمت الى حجرة صغيرة فى طرف الشرفة ٠٠ وتسلل سانت كلير على أطراف أصابع قدميه ليرى ما تفعلان ، فاذا هما تجلسان على الارض ، و « توبسى » مستهترة ، معرضة كعادتها ، بينما كانت الدموع تملأ عينى « ايفا » وهى تحاول أن تقنعها بأنها تحبها وتبغى أن تساعدها على اصلاح حالها ٠٠ وسمعها تسائلها :

ـ ما الذى يجعلك مفسودة النفس الى هذا الحد ؟٠٠ لم لا تحاولين أن تصلحى نفسك وتصبحى طيبـــة ٠٠ أليس فى وسعك أن تحبى أحدا ؟

وأجابتها الصغيرة السوداء : « لست أدرى شيئا عن الحب »

فأهابت بها « ايفا » من أعماقها أن تكون طيبة ، ولكنهـــا أجابتها : « كيف أكون طيبة ؟٠٠ ما كنت فى يوم من الايام سوى زنجية ٠٠ جارية ٠٠ انما أحاول أن أغدو طيبـة لو أن جلدى سلخ يوما فصرت بيضاء ٠٠ ليس ثمة من يحب الزنوج ، فليس فى وسع الزنوج أن يحبوا ٠٠ »

وشرعت فى الصفير غير مكترثة ، فهتفت ايفا : « أواه ، يا توبسى ٠٠ ولكننى أحبك ! » ٠٠ وفاضت عواطفها فوضعت يدها برفق على كتف الجارية ٠٠ واذ ذاك ذاب عناد « توبسى » وجحودها فهتفت بدورها : «أواه يا مس ايفا الحبيبة٠٠سأحاول ٠٠ ما كنت لاحفل باصلاح نفسى من قبل »

✻

◆ **ولازمت** « توبسى » مولاتها الصبية بعد ذلك ، متفانية فى ارضائها ٠٠ واشتد المرض بالصغيرة فلم تعد تبرح فراشها ٠٠ وفى أصيل ذات يوم ، طلبت ايفا جميع من فى البيت ليلتفوا

حول سريرها ‥ وأخذت تنقل بصرها بينهم فى أسى ثم قالت :
ـ انما استدعيتكم لاننى أحبكم ، ولاننى أزمع فراقكم ‥
وانطلقت الانات والشهقات من الجميع، بينما مضت الصغيرة تعظهم بأن يصلحوا أنفسهم ، وأن يتخذوا لهم أهدافا تجعل لحياتهم قيمة ومعنى ونفعا ‥ ثم وزعت عليهم خصلات من شعرها ـ الذى كانت قد قصته قبل أن تدعوهم ـ لتكون ذكرى لها لديهم !

وبقى توم الى جوار السرير بعد انصراف الجميع ، فهتف فى أسى : « ألا تعرفين اننى لا أستطيع الحياة بدونك ؟ » ‥ وتهالك فى بكاء مؤلم حتى أقصته « أوفيليا » عن الحجرة ‥

وأخذ بصيص الحياة يخبو رويدا فى أوصال « ايفا » بعدذلك اليوم ‥ وكان توم وأبوها لا يكادان يفارقانها ‥

وفى ليلة مدلهمة ‥ ماتت « ايفا » !‥ وأمسك سانت كلير بيد توم فى أسى جارف وهما يبكيان ‥ وأصرت « توبسى » على ان تلج الغرفة التى سجى فيها جسد الصبية ‥ وفى هدوء وسكينة سعت الى الفراش وفى يدها شىء أخفته تحت مرولتها : نصف زهرة ممزقة من زهور الشاى جاءت تقدمها ‥ ولكنها لم تلبث أن فطنت الى الحقيقة فصرخت مرتاعة وارتمت على الارض باكية مولولة : « أواه يا مس ايفا ‥ ليتنى أموت أنا الاخرى »

وتتمالك أوفيليا نفسها ـ وكانت منخرطة فى البكاء ـ فتحملها الى خارج الغرفة ، والصغيرة الزنجية تبكى قائلة : « لقد قالت انها كانت تحبنى ‥ لم يعد هناك من يحبنى الآن ! »

*

◆ **وساءت** حال سانت كلير بعد وفاة ابنته ‥ ولم يعد يرتاح الا الى صحبة توم ، ينصت فى شغف الى نفحات الايمان التى كانت قوة روحية تسوقها على لسانه ‥

وقبل أن يفى سانت كلير بما وعد به ابنته من عتق توم ،

أغتيل فى نزاع طارىء نشب فى مقهى !٠٠ وصفيت ممتلكاته ٠٠ وبينما أشفق القدر على « توبسى » فآلت ملكيتها الى «أوفيليا»، تنكر لتوم فاذا زوجة سانت كلير الجاحدة ، المتعجرفة ، تسوقه وزملاءه الى سوق النخاسة ، كى تجنى من بيعهم مزيدا من المال ٠٠ وكان الحنين الى الحرية قد نما فى نفس العبـــد التعس وتشعب ، بعد اذ غذته « ايفا » وأبوها بآرائهما وعطفهما ٠ وزاد من قسوة الكارثة أنها وقعت فى الوقت الذى كان فيه السيد يعد عدته لعتق عبده نهائيا !

وفى سوق النخاسة وقع توم فى حوزة « سيمون ليجرى » ـ وهو سيد كان يملك مزرعة كبيرة للقطن فى الشمال ، فى « فيرمونت » ـ وما أن أقلعت السفينة حاملة قافلة العبيد الذين اشتراهم «ليجرى»، حتى شرع السيد الجديد يكشف عن قسوته، وفظاظته ، وغلظته !٠٠ رأى كتاب التـرانيم يوما فى يد توم فصاح به : « اذا كان لا بد لك من كنيسة ودين ، فأنا كنيستك ودينك ٠٠ أفاهم أنت ؟ »

وكان صمت العبد أبلغ من كل قول ! ٠٠ وكأنما غاظ هذا الصمت مولاه الفظ فدفع بحقيبة توم الى الملاحين يستعرضون ما كان فيها فى سخرية ، ثم يوزعونه فيما بينهم ٠٠ بينما تحول « ليجرى » يستعرض بقية عبيده الجدد ويعرض عليهم ألوانا من خشونته وبطشه !

واقتربت السفينة أخيرا من شاطىء كساه الطمى الاحمر ، فارتمت نظرات العبيد فى أسى ووجوم على البلدة التى تقرر أن يهبطوا اليها كى يواصلوا منها رحلتهم برا الى ضيعة ليجرى ٠٠

*

◆ **سار** العبيد صفا ـ تربط بينهم السلاسل الحديدية ـ خلف عربة السيد ، فى طريق وعرة ، مضنية ، والريح تهب فى ولولة حزينة ٠٠ وكأنما أبت قسوة قلب ليجرى أن تقنع بما هم

فيه ، فأمرهم بأن يغنوا !٠٠ وشرع توم ينشد احدى الترانيم الكنسية ، ولكن ليجرى صاح صاخبا يأمره بأن يصمت ، وأصر على أن يغنى التعساء أغنية مرحة !٠٠ وانبعثت الاصوات فى طرب ظاهرى من صدور ضمت قلوبا أثقلها القنوط

وبلغ الركب الكئيب ضيعة ليجرى أخيرا ٠٠ الضيعة التى كان يحكمها السيد بالارهاب والكراهية ٠٠ كان يبث فى صدور عبيده كراهية بعضهم بعضا ، ثم يوغر صدورهم حتى يحيلهم وحوشا مجردة من الانسانية ٠٠ ضد بعضهم بعضا ، لا ضده !

وكان « توم » كفيلا بأن يقنع بما قدر له من مصير، فان تقواه كانت تسكب فى أعماقه رضى وسكينة٠٠ غير أن فظاظة السيد، والانحلال الخلقى الذى لمسه بين عبيد الضيعة ، أثارا اشمئزازه ٠٠ لا سيما وقد كان لدى ليجرى عبدان أثيران أطلق لهما العنان فكانا يغتصبان الجوارى دون تورع !٠٠ فلم يجد توم عزاء لنفسه الا فى انجيله وتوراته ، وفى محاولته فى كل فرصة أن يقدم الوعظ لمن يأنس اليه من زملائه العبيد ٠٠

واستقر توم فى مهانته الجديدة ٠٠ وكان « ليجرى » يراقبه عن كثب ، فلما اطمأن الى جده وكفاءته فكر فى أن يجعل منه مراقبا على العبيد فى المزرعة ٠٠ ولكنه آثر أولا أن يقضى على ما كان يعمر قلبه من ايمان ورحمة وصراحة ، اذ كان يراها ضروبا من اللين والنقص !٠٠ وكان يعتبر اعتزازه بدينه لونا من التمرد ٠٠ وقرر أن يقاوم فيه نزوعه الى الحرية ، وحنينه الى أن يكون له ما لاى فرد من حقوق كتبها له الله ٠٠

وفى فجر ذات يوم ، خرج العبيد لجنى القطن ٠٠ ولاحظ توم الى جواره جارية لم يرها من قبل بين الكادحات ٠٠ كانت ذات يدين رخصتين وقوام رشيق، وقد بدت على ملامحها علامات الغضب المصحوب بالتجلد والكبرياء ٠٠

ولمح فى أثناء النهار احدى الجوارى اللاتى ابتاعهن «ليجرى» معه تعانى آلاما مبرحة دون أن تقوى على جنى شيء ، فأقبل يساعدها،

واذا « سامبو » ـ أحد العبدين الاثيرين لدى ليجرى ـ يقبل فيلهب وجهه بالسوط ، ويركل المرأة بقدمه ٠٠ واحتمل توم فى صبر ، ثم عاود الاقتراب من المرأة ، وألقى فى كيسها كل ما جنى من قطن ٠٠ واذ ذاك رفعت المرأة الجديدة ـ ذات اليدين الرخصتين والملامح التى تسيطر عليها الكبرياء ـ أهدابهـا الطويلة وتطلعت اليه قائلة :

ـ لو كنت تعرف حقيقة هذا المكان لما فعلت ما فعلت ٠٠ انه مكان لم يزره الله !

وفى تلك الاثناء أقبل أحد المراقبين ، فما ان لمحهما يتكلمان حتى رفع صوته ـ وحدجته المرأة بنظرة قاسية ، واذا يده تهوى الى جانبه ويهتف : « يا للشيطان !٠٠ مس كاسى !٠٠ »

وكان الظلام قد سيطر على الكون ، حين اتجه العبيد الى المبنى المخصص لهم ، وهم لا يكادون يقوون على السير لفرط ما نالهم من ارهاق ٠٠ ووقف « سامبو » و « كيمبو » ـ المقربان للسيد ـ يشرحان له أحداث اليوم ، ويشكوان من محاولات توم لمساعدة الجارية التى رآها عاجزة عن العمل ٠٠ فقال ليجرى :

ـ أصحيح هذا ؟٠٠ اذن فسنتيح له بهجة جلدها بالسوط ليتدرب على معاملة البنات ٠٠

ونادى توم وأمره أن يسوط الفتاة ٠٠ ولاول مرة يعصى توم سيدا ، اذ رفض ٠٠ وتناول ليجرى سوطا وضربه على وجهه فى عنف ٠٠ وتحمل توم ، حتى اذا كل الرجل ، قال وهو يمسح الدم المنبثق :

ـ مرنى أن أعمل ليل نهار يا سيدى ٠٠ أما هذا العمل ٠٠ فلن أقارفه قط !

وسرت رعدة من الدهشة والاشفاق فى جميع العبيد وصاح ليجرى :

ـ ماذا أيها الحيوان الاسود ؟٠٠ أأنت تعلم مولاك الخير والشر ٠٠ والصواب والخطأ ؟٠٠ يا لك من كلب تقى !٠٠ ألم يرد فى توراتك أن « أطيعوا سادتكم أيها الخدم » ؟٠٠ أو لست سيدك ؟

وركله بحذائه الضخم فى عنف وهو يقول :

ـ ألست مولاك ؟٠٠ ألم أدفع ألفا ومائتى دولار فى هذا الهيكل الباقى تحت جلدك الاسود القذر ؟٠٠ ألم تصبح ملك يدى جسدا وروحا ؟

واذ سمع « توم » وحى الغرور والاستعلاء ، اعتدل فى وقفته منتصبا فجأة ، ورفع وجهه الى السماء والدمع يفيض من عينيه، فيختلط بالدم الذى سال من وجهه أثر السوط والركلات ، وهتف :

ـ لا ٠٠ حاشا !٠٠ انك لا تملك روحى يا مولاى !٠٠ انك لم تبتعها ، وليس فى وسعك أن تبتاعها ٠٠ انما اشتراها ودفع ثمنها الواحد القادر على أن يحتفظ بها ٠٠ ولن تستطيع أن تنتزعها منه مهما آذيتنى !

وهاجت هائجة ليجرى ٠٠ كيف يشرك ذلك العبد فى سلطانه عليه أحدا ، ولو كان الواحد القادر ، مالك الخلق أجمعين ؟٠٠ وفى سورة الطغيان ، أمر « سامبو » و « كيمبو » بأن يسوطا « توم » !٠٠ وأقبل العبدان الخسيسان على الزنجى المسن الواهن ، يجرانه فى عنف ، ثم انطلقا يلهبان جسده بسياط سكبا فيها كل ما اختلط فى نفسيهما من خسة ووحشية ، حتى أحالاه شرائح ممزقة أيما تمزق !٠٠ لكن توم لم يتزحزح عن عقيدته ٠٠ لقد اشترى الطاغية الجسد الفانى ، ولكنه لا يملك سلطانا على الروح ، فهى لبارئها وخالقها ومبدعها ٠٠!

ولم يزده اصراره الا عذابا ٠٠ وظلت السياط تنهال عليه ، حتى أنقذته الجارية السمراء ذات الكبرياء « كاسى » ، التى لم

تكن سوى جارية من أب أبيض وأم سوداء ، اتخـذها ليجرى خليلة له ردحا من الزمن ٠٠ ووهبها الحظ قوة سحرية تجعل « سامبو » و « كيمبو » ينحنيان أمام نظراتها !

وعكفت « كاسى » على « توم » تعنى به وتضمد جراحه ٠٠

- ٧ -

ورحم ليجرى عبده ، لا رهبة من الله ، وانما ارضاء لخليلته السابقة ، فتغافل عنه أياما ، حتى تماثل للشفاء ٠٠

وكان توم نائما قبيل فجر أحد الايام فى الحظيرة يحلم بأن يومه قد اقترب ، وانه على وشك اللقاء الذى كانت تهفو اليه روحه ٠٠ لقاء ربه !٠٠ وفجأة أحس بركلة عنيفة بددت رؤى الحلم ٠٠ واستيقظ ليرى ليجرى أمامه !

وقال الطاغية : « اجث على ركبتيك واستغفرنى أيها الكلب !»

وانتصب توم واقفا ورفع رأسه فى شمم واباء قائلا :

ـ أعرف أنك تستطيع أن تنكل بى ٠٠ ولكنك لن تعدو أن تقتل الجسد ٠٠ وما أحب الخلود الذى يتلو ذلك !٠٠ ان لك عمل يدى لانك ابتعتنى ، أما روحى ، فليس بوسعى أن أهبها لمخلوق فان ٠٠ انها وديعة أحتفظ بها لاردها الى الله !

ـ سأريك كيف تذللها لى ٠٠

ـ لن تستطيع ، فان الله يعيننى !

ولكمه لكمة طوحت به أرضا ٠٠ وهم أن يبطش به لولا أن أحس بيد ناعمة باردة تمسك بيده ٠٠ والتفت فاذا « كاسى » أمامه ٠٠ وكأنما كان لها فعل السحر ٠٠ فنكص السيد على عقبيه وغادر الحظيرة !

وقال توم : « ألم أقل له ان الله يعيننى ؟ »

فقالت له : « هذا ما حدث فعلا ، ولكن الطاغية لن يكف عن تعقبك يوما بعد يوم ، يمتص دمك قطرة اثر قطرة ٠٠ اننى أعرفه ! »

*

◆ **لندع** العم توم لحظة لنكر عائدين الى حيث تركنا جورج هاريس وزوجته •• فانهما لم يكادا يبلغان المحط التالى فى رحلتهما حتى بادرت اليزا الى الاستخفاء فى ثياب الرجال بعد أن قصت شعرها ، وألبس « الكويكرز » ابنها « هارى » ثياب البنات •• بينما أجرى جورج بعض التعديلات فى مظهره •• وهكذا استقلوا السفينة فى طريقهم الى كندا ••

وكانت الرحلة لا تستغرق أربعا وعشرين ساعة فى العادة ــأى يوما واحداــ ولكنه كان بالنسبة لجورج واليزا يوما حافلا •• **كان الحد الفاصل بينهم وبين الحرية •• الحرية !•• هل من كلمة تحمل فى حروفها وجرسها من المعانى مثل هذه الكلمة ! •• وهل من كلمة تجلها الامم ويجلها الافراد على السواء مثلها ! •• وما حرية الشعب ان لم تكن حرية الفرد ؟•• ان الحرية لدى أبطال الجهاد الوطنى هى حق الامة فى أن تغدو أمة •• وبالنسبة لجورج هاريس كانت الحرية هى حق الانسان فى أن يكون انسانا ، لا حيوانا !**

ووقف جورج واليزا على سطح السفينة وهى تقترب من شاطىء بلدة « أمهر ستبيرج » الكندية •• وتهدجت أنفاس الشاب ، واغرورقت عيناه بالدموع وهو يضغط اليد الصغيرة التى كانت فى راحته ، بينما انبعث رنين جرس السفينة يعلن •• سلامة الوصول !

وكانا قد أنفقا آخر درهم يملكان حين هبطا الى البر •• لم يكونا يملكان سوى الهواء الذى يستنشقانه ، وتغريد العصافير الذى كان يشنف أذانهما ، والزهور المنبثة فى الحقول يبعث مرآها بهجة فى نفسيهما •• ومع ذلك فقد كانا أغنى البشر •• بالحرية !

*

◆ **قبل** أن يسترد توم قواه كان ليجرى قد أرسله الى الحقول يعمل ، وراح يرهقه بالمهام ، يشغله بها ليل نهار ، حتى لم يعد يجد وقتا يقرأ خلاله التوراة ، اللهـــم الا تلك الدقائق التى يستغرقها انضاج طعامه على النار حين يأوى الى الحظيرة فى المساء ..

وفاجأه يوما ليجرى وهو يقرأ الانجيل على وهج الموقد فقال له: « ألا تزال تتشبث بالدين ؟.. لقد أردت بك خيرا حين ابتعتك أيها العجوز ، وكان بوسعك أن تكون أعز مركزا من سامبـــو وكيميو .. فدع آلهك وانضم الى كنيستى .. »

واذ ألفى أن ايمان توم لا يزال راسخا ، تحول يزيده ارهاقا ، ويوسعه اضطهادا !.. وكاد اليأس يتسرب الى نفس العبـــد المسن ، لولا أن روحه كانت لا تلبث أن تذكو كلما وهن جلده .. وفى نوبة من نوبات القنوط ، خيل اليه أنه يرى المسيح ماثلا أمامه ، محوطا بهالات من نور سماوى .. وسمعه يحنو عليه فى عطف ويردد : « ان الذى يقاوم فينتصر يجلس الى جوارى على عرشى .. كما قاومت واحتملت فجلست مع أبى على عرشه »!

وكان لهذه الرؤيا فى نفس توم الصالح الساذج وقع الحقيقة .. فاستيقظ فى فجر اليوم التالى وهو أقوى ايمانا ، وأعمر قلبا ، وقد بدا له أن كل ما فى وسع « ليجرى » أن ينزله به من ضروب المهانة ، والذلة ، والعذاب ، انما هى كؤوس لها نشوة ! **.. ولاحظ الجميع ما كان عليه توم من اشراق وابتهاج ، وسمعه ليجرى فى ذلك المساء ينشد الترانيم بصوت كان يتصاعد من أعماقه .. فسار اليه ، وانهال عليه ضربا ! ولكن ضربه لم يصل الى غير البـــدن الخارجى .. أما الروح ، فظلت منتعشة ، مستريحة راضية ..**

وفى بهيم الليل ، استيقظ توم على « كاسى » تهزه ، فلما

استفاق بادرته هامسة : « أيهـــا الاب توم ٠٠ ألا تحب أن تستعيد حريتك ؟ »

فأجابها : « لا ٠٠ ولو كانت تعدل ألف دنيا ٠٠ سأنالها حين يشاء الله ٠٠ ان الخير لا يتأتى قط عن الخطيئة والذنب ٠٠ لقد مات المسيح من أجلنا ، فخليق بنا أن نتحمل ما يريده الله بنا من عذاب مقتـــدين به ، مرتقبين لحظة الخلاص التى يحددها ٠٠ »

*

ولكن « كاسى » لم تكن فى مثل ايمانه وتقواه ٠٠ فما لبثت أن فرت ٠٠ وأغرت على مرافقتها « اميلين » ، خليفتها فى أحضان ليجرى ٠٠

وطاردهما الطاغية وعبداه « سامبو » و « كيمبو » ، حين افتضح الامر ٠٠ فلما عجزوا عن اللحاق بهما ، عاد ليجرى وقد تملكه غضب أهوج كأنه الاعصـــــار الجامح ، عصف بأطلال الانسانية فى نفسه ، فانطلقت وحشيته أشد ما تكون عتوا ٠٠ وبحث عن منفث لغيظه ، فلم يجد غير توم، اذ خيل اليه أن له يدا فى الامر ، فعهد الى عبديه بأن يسوطاه ٠٠

ولم يقاوم المسكين ، بل رفع وجهه الى السماء وهتف : «اليك أسلمت روحى ! » ٠٠ وانهالت عليه السياط فى جبروت، فكان وقعها يستحيل فى أذنيه الى صوت سماوى يردد : « لا تخف أولئك الذين يقتلون الجسد ، فليس من سلطان لهما وراءه ٠٠ »

وكان ليجرى يتناوله بين الحين والآخر فيوسعه ركلا ٠٠ ثم يعاود العبدان سوطه غير مشفقين ٠٠ حتى بلغ منهما الاعياء كل مبلغ

وقال ليجرى : « لطالما تحديتنى أيها العبد الاسود ، ولكننى عازم الآن على أن أكسر عنادك أو أقتلك ٠٠ أنتزع قطرات دمك تباعا ! »

فتطلع اليه توم وقال : « اننى لاهبك دمى عن طيب خاطر لو كان فيه انقاذك ٠٠ ولكنى أهيب بك أن لا تجلب على نفسك وزر موتى ٠٠ ان الاذى الذى سيصيبك أضعاف ما يصيبنى ! »

وتقطعت أنفاس توم ، ولكنه لم يئن أو يصرخ٠٠ كانت روحه البريئة تشعر بأن الله معها فتنسى فى نشوة الرضى قسوة الالم !٠٠ وهم العبدان أن يكفا عن سوطه ، ولكن ليجرى زمجر مهددا ، ففتح توم عينيه ونظر اليه قائلا : « أيها المخلوق المسكين التعس ٠٠ انك لن تفعل بى أكثر مما فعلت ٠٠ ولكنى أغفر لك من كل قلبى ! »

وبهت « سامبو » و « كيمبو » من قوة ايمان توم ، فما أن تحول عنهما سيدهما ، حتى ذاب جحودهما ، وألقيا سوطيهما ، ثم ركعا الى جوار فريستهما يبكيان ٠٠ ولاول مرة آمنا بوجود سيد فوق سيدهما ٠٠ سيد أعز منه مكانة ، وأحب منه الى عباده ، حتى ليلقى العبد من أجله ما يلقى وهو صابر ، شاكر ، راض ٠٠!

- ٨ -

◆ **وظل** توم يومين بلا حراك ، يحتضر ٠٠ وكان كلما أفاق من غشيته دعا الله بأنفاس متقطعة أن يغفر للطاغية ليجرى ٠٠

وفى اليوم الثانى ، وفد على الضيعة شاب بادى الاناقة والعراقة ، فما أن بلغها حتى قفز من عربته فى عجلة ٠٠ ولو أننا أنعمنا النظر فى القادم ، لعرفنا فيه مستر جورج شيلبى ، الصبى السيد الذى كان متعلقا بالعم توم ٠٠ لكنه قد نما وأصبح رجلا ، واستطاع بعد بحث وعناء أن يهتدى الى مقر توم فجاء ليسترده ٠٠ واذ علم ليجرى ببغيته ، انطلق ينعت العبد المسن بأفحش النعوت ، ولكن الشاب قطع عليه كلامه متسائلا فى جفاء عن مكانه ، وقد امتقع وجهه ٠٠

وألفى توم راقدا فى الحظيرة يجود بآخر أنفاسه ، وقد أحاط به العبيد يبكون ٠٠ حتى « كاسى » الهاربة ، بلغتها الانباء وهى جادة فى الفرار ، فاذا بها تستهين بالاخطار وتعود لتجثو الى جواره باكية ٠٠

وركع جورج شيلبى الى جوار توم يناديه بصوت باك ٠٠ وفتح المحتضر عينيه ، وتمتم فى صوت خفيض : « السيد جورج !٠٠ لك الحمد يا رب ٠٠ هـــذا غاية ما كنت أتمنى ٠٠ انهم لم ينسونى ! »

وهتف جورج : « لا تمت ٠٠ ستحطم قلبى ٠٠ يا صديقى المسكين ! »

ـ جئت متأخرا ٠٠ لقد ابتاع الله نفسى ، وسيضمنى اليه ٠٠ لا تدعونى « صديقك المسكين » ٠٠ لقد كنت مسكينا يوما ما ، ولكن هذا ذهب مع الزمن ٠٠ اننى الآن على أبواب المجد ٠٠ أواه يا سيد جورج ، ها قد حانت الآخرة ٠٠ حانت ساعة الفوز ! ٠٠ لا تقل لكلو المسكينة شيئا مما حدث ٠٠

وأخذ جورج فى لوعة الاسى يسب ليجرى ، وهم أن يبطش به !٠٠ ولكن توم أمسك بيده قائلا : « لا ٠٠ انه مخلوق مسكين ، تعس ٠٠ أواه ، لو تاب وأناب وندم ٠٠ لا تعاده ، ولكن استغفر له ! »

وكانت آخر كلمات لفظها توم مع نهاية أنفاسه : « من ٠٠ من ٠٠ منذا الذى يقوى على منعنا عن محبة الله ، أشـدة ، أم ضيق ، أم اضطهاد !؟ »

ومات توم !٠٠ وجلس جورج ذاهلا من فرط حزنه ، ثم نهض فأمر العبيد المتجمعين ، فى لهجة لم يقو أحد على رفضهـــا ، فحملت جثة توم الى عربته ٠٠ وهناك نشر عباءته ، فسجيت عليها الجثة ٠ ثم تحول الى ليجرى الذى كان يصفر فى غير اكتراث ،

فاستدار اليه ، ووجه اليه لكمة طرحته أرضا ، ووقف متحفزا ٠٠ ولكن الطاغية المريد غالبا ما ينطوى على نفس خسيسة يملأها الجبن ٠٠ فقد نهض ليجرى ونفض الغبار عن ثيابه ، وسار نحو الدار والعبيد يرمقونه فى عجب وازدراء ٠٠!

*

◆ **وذاع** بعد موت توم أن ثمة شبحا يظهر كل ليلة فيسير من الحظيرة حتى بيت ليجرى ويمضى فى الطواف حوله ، ثم يجوس خلال الحجرات ٠٠ واشتد بليجرى الذعر ، فكان يحكم رتاج الابواب ، ولكن الجدران والابواب لم تكن لتصد الشبح عن أن يلج الدار ٠٠ وراح ليجرى يفرط فى الشراب ليغرق ذعره ٠٠ ولم يعد يقوى على النوم ، أو ينعم بالراحة ٠٠ حتى قضى نحبه وليس الى جوار فراشه من يشفق عليه !

ووصلت « كاسى » الى كندا أخيرا ، حيث التقت بجورج هاريس واليزا ٠٠ وشد ما كانت الفرحة حين ظهر أن كاسى لم تكن سوى ٠٠ أم اليزا !٠٠ وانضم الى الجمع السعيد عضو جديد : أخت جورج التى بيعت على مشهد منه ٠٠ فقد وقعت بين يدى سيد رحيم ، لم يلبث أن حملها الى مزارعه فى جزر الهند الغربية ، حيث أعتقها وتزوج منها ، حتى اذا مات ورثت أملاكه ٠٠

أما « توبسى » الصغيرة المتمردة ، فقد غمرت أنوار الهداية قلبها الذى كان مستعصيا ، فكرست حياتها لخدمة الزنوج فى أفريقيا ٠٠

بقى جورج شيلبى ٠٠ فقد هز مصير توم كيانه ، فلم ينقض شهر على عودته الى ضيعة شيلبى حتى جمع كل عبيده وأعلنهم بأنه أعتقهم ٠٠ وقدم لكل منهم وثيقة العتق ، فاذا بهم يجمعون على أنهم لا يقوون على مبارحة المكان الذى أصبح وطنا لهم ٠٠

وطمأنهم جورج الى أنهم سيبقون فى الضيعة ولكن كأجراء أحرار ، ثم استطرد قائلا :

ــ كان ذلك على قبر عزيزنا الطيب العم توم اننى أقسمت لله أن لا أمتلك رقيقا ما دام فى وسعى أن أحرره ٠٠ **لذلك ، فاننى أرجو كلما نعمتم بحريتكم أن تذكروا أنكم مدينون بها لتلك الروح الطيبة ، وأن تردوا الدين عطفا وحدبا على زوجته وأولاده ٠٠ فكروا فى حريتكم كلما رأيتم « كوخ العم توم » ، وليكن نصبا تذكاريا يحثكم دائما على أن تتبعوا خطوات صاحبه، وأن تكونوا أمناء ، مخلصين ، متقين ٠٠ كما كان**

الجهل نور !

◆ **قال** القاضى الانجليزى يخاطب المتهم الماثل أمامه : « أنت متهم بالسكر والعربدة ٠٠ فهل عندك أقوال تدافع بها عن نفسك ؟ »

فأجابه المتهم الثمل فى لهجة خطابية : « يا لقسوة الانسان على أخيه الانسان !٠٠ انى لست فى غرور (بيرون) ، ولا فى انحلال (ادجار آلان بو) ، ولا فى جحود (كيتس) ، ولا فى شراسة (بيرنز) ، ولا فى خجل (تنيسون) ، ولا فى سوقية (شكسبير) ، ولا ٠٠٠ »

وقبل أن يستطرد المتهم فى سرد نقائص كبار أدباء القرون الماضية قاطعه القاضى : « هذا يكفى ، هذا يكفى ٠٠ حكمت المحكمة بحبس المتهم سبعة أيام ٠٠ » ثم التفت القاضى الى كاتب الجلسة قائلا : « خذ أسماء هؤلاء الذين ذكرهم المتهم ، واستدعهم للمثول أمام المحكمة فى الجلسة القادمة ٠٠ فانهم لا يقلون انحلالا فى الخلق عن المتهم ! »

درس لم يثمر !

◆ **كان** التلميذ ذكيا مجتهدا فى كل دروسه ، الا فى تصريف الافعال ٠٠ وذات مرة قال لمدرسه فى معرض مناقشة : « انى كتب » وكان يقصد « انى كتبت » ٠٠ فأوضح له المدرس خطأه وكلفه بأن يتأخر فى الفصل بعد موعد الانصراف ساعة ليكتب على السبورة العبارة الصحيحة « انى كتبت » مائة مرة !

وحين فرغ من « العقاب » ترك لمدرسه ورقة قال فيها : « انى كتب (انى كتبت) مائة مرة كما أمرتنى ، والآن سأنصرف »

الخالدون



عظماء .. في غير السياسة

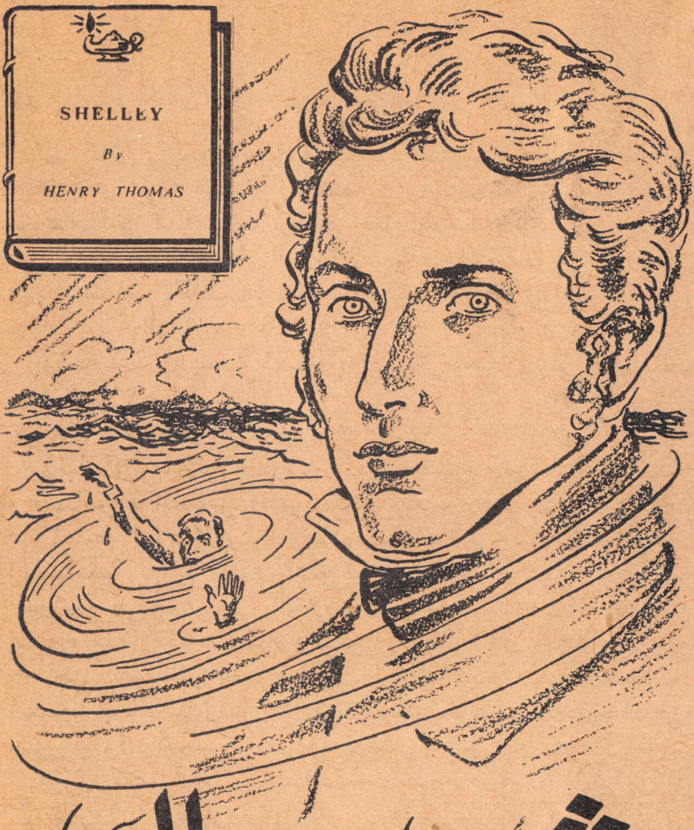
عزيزى القارىء ...

فى الاعداد السابقة قدمت لك فى هذا الباب على التوالى قصص حياة : ((ديفاليرا)) .. و ((غاريبالدى)) .. و ((لويس باستير)) .. و((اميل زولا)) .. و((ماركونى)) .. و((تشايكوفسكى)) .. ((فمصطفى كمال)) .. ثم ((شوبان)) .. و((جى دى موباسان)) و((مختار)) و ((تشارلس ديكنز)) و ((بيتهوفن)) وأخيرا ((موسولينى)) .. وهم من هم من العظماء فى السياسة ، والطب ، والادب ، والاختراع .. والموسيقى .. والفنون .. الخ

واليوم أقدم لك فيما يلى صورا من حياة الشاعر الانجليزى الخالد ((شيللى)) مع طرائف من حياته القصيرة التى لم تطل أكثر من عمر الزهور

وفى الاعداد التالية اعرفك باذن الله بهؤلاء الذين تشتاق الى معرفتهم منذ بعيد : لورد بيرون ، براوننج ، شوبرت .. فولتير ، شوبنهاور ، نيتشه ، ارسطو .. بوذا ، كونفشيوس .. داروين ، اينشتين .. شكسبير ، جوته ، اديسون ، فورد .. بلزاك ، والتر سكوت ، ديماس ، دستويفسكى .. كولمبوس ، الاسكندر المقدونى بطرس الاكبر ، فردريك ، بسمارك .. فنشى ، وغيرهم

مايكل انجلو ، رفاييل ، ليوناردو دى



شيلى

شاعر البوهيمية والجمال..

الفتى الحالم

◆ **كان** ، بعينيه الزرقاوين الرائعتين ، وشعره الاسمر القاتم ، وبشرته اللطيفة الناصعة ٠٠ أشبه بمخلوق من الجن ، من عالم آخر !٠٠ وقف يوما فى فناء مدرسته ورسم حوله دائرة على الارض ، ثم أشعل النار فى آنية تحوى كحولا ٠٠ ووقف وسط سحب اللهب المتصاعدة يصيح بصوته الثاقب الحاد : « يا زبانية الهواء ، والماء ، والنار ٠٠ تعالى الى ٠٠ »

ولمحه أحد مدرسيه فصاح به مستغربا : « شيللى ٠٠ بربك ماذا تفعل ؟ »

فقال : « أحضر الشياطين ٠٠! »

ونبذ كل من فى المدرسة ، من معلمين وتلاميذ ، هـذا « الساحر » الصغير المتمرد الذى يحضر الشياطين ، والثائر على أبسط قيود المدرسة ونظمهـا ، التى كان عقله المرهف الحساسية يراها أشبه بأسواط الاستعباد ٠٠ فكان يهجـر الدراسة كى يمشى فى الخلاء ، وحيدا ، مبتئسا ٠٠ بقميصه المفتوح عند رقبته ، وشعره الطويل الثائر الذى تعبث به الريح ٠٠ حتى لقد أطلق عليه زملاؤه « شيللى المجنون » ، ونظموا من أنفسهم جماعة لمناوأته ، فكان لا يكاد ينفرد بنفسه على شاطىء النهر ليقرأ « شكسبير » أو « فولتير » حتى يداهموه من حيث لا يدرى كعصبة من كلاب الصيد فيطاردوه خلال الاحراش الى أن يظفروا به ويجبروه على الدخول معهم فى قتال غير متكافىء ، وهم الكثرة الباغية ٠٠ **فشب يصف المجتمع الانسـانى بأنه « قبيلة من البرابرة يتخفون وراء طلاء زائف من الحضارة ! » ٠٠ وكان زعيم أولئك البرابرة فى نظره « دكتور كيت » ناظر المدرسة ٠٠ ويليه والد شيللى نفسه « مستر تيموثى » ، الذى أحال فترات عطلة ابنه الدراسية السنوية الى « رحلات دورية**

الى الجحيم ! » ٠٠ أما والدته فكانت تحتقر ابنها « المخنث » الذى يفضل أن يمضى الى الغابة وفى يده بدل البندقية ٠٠ كتاب !

لكن ستة آخرين من أفراد الاسرة كانوا يحبون شيللى الى درجة الشغف، هم أخواته الاربع ، وأخوه الاصغر، ثم جده لابيه « سير بايشى » ٠٠ وقد كان سر شغف أخيه وأخواته به شيئين: أصابعه السحرية التى كانت مولعة بمزج المستحضرات الكيميائية وصنع « المعجزات » بتغيير ألوانها وأشكالها ٠٠ ثم لسانه الذرب الذى كان مولعا بدوره بسرد أغرب القصص والخرافات!

وكان جده « سير بايشى » فى نظره « رجلا نبيلا فى دنيا خبيثة ! » ٠٠ أما الرجل الآخر النبيل فى دنيا شيللى - فى سنوات مراهقته التالية - فكان « وليم جودوين » الاستاذ بجامعة أوكسفورد ٠ لم يكن شيللى قد رأى جودوين قط ، لكنه قرأ كتابه « العدالة السياسية » فحفظه عن ظهر قلب كانجيل جديد ٠ وكان يقول لنفسه : « لا بد أنه عظيم هذا الانسان « جودوين » ، أعظم البشر قاطبة ٠٠ ولسوف يأتى يوم أجلس فيه بخضوع عند قدميه ٠٠ »

هواجس الموت ٠٠
وأحضان النساء !

◆ كان شيللى فى فترة من الفترات على صلة غرامية بامرأة تدعى « جين وليامز » ، وفى تلك الايام كانت تراوده هواجس الخوف من الموت غرقا ، فكان يحاول اغراقها فى طوفان الارتماء فى احضان النساء ٠ وذات يوم أخذ « جين » للنزهة فى زورق ، وتوغلا فى البحر الى مسافة بعيدة . وفجأة كف شيللى عن التجديف وشرد برهة ثم انحنى على مرافقته قائلا : « والآن ، هيا بنا نحل اللغز الاعظم سويا ! » ٠٠ وبرغم ذكاء جين ولباقتها فقد وجدت صعوبة كبيرة فى ذود شيللى عن قلب الزورق ٠٠ وقد قلبه بالفعل بمجرد أن وصلا الى بقعة ضحلة المياه ، قرب الشاطىء ٠٠

◆ **عندما** أتيح لشيللى بعد لأى أن يدخل جامعة أوكسفورد فى سنة ١٨١٠ ، كان فوضويا فى مظهره وعاداته وأفكاره .. ولم يلبث طويلا حتى صدم أساتذته ببحث كتبه موضوعه « ضرورة الالحاد ! » ، ففصلوه من الجامعة على الفور .. **وعاد الى أهله موصوما بالعار ، ليجد أباه قد حرمه من الميراث ! .. وبرغم ذلك فانه لم يرتدع ، بل احتفل « ببركة الافلاس » بارتكاب حماقة جديدة : هى التزوج سرا من ابنة صاحب حانة تدعى « هارييت وستبروك » ، ثم الفرار معها الى ايرلندا ، بعد أن بارك والدها زواجها من الفتى العريق « حفيد البارون » بتقرير مرتب سنوى للعروسين قدره مائتا جنيه !**

وهناك فى عاصمة ايرلندا « دبلن » ارتمى شيللى ـ الذى لم يكن قد جاوز التاسعة عشرة ! ـ فى خضم السياسة ، فنصب نفسه مدافعا عن قضية الحرية الايرلندية ، حتى لقد طبع ووزع

يحتقر شهوة الطعام !

◆ كان شيللى ينظر الى ملاذ الطعام باحتقار بالغ ، حتى لقد كان ينسى احيانا اذا كان قد تناول غذاءه أم لا ـ شأنه فى ذلك شأن العالم الكبير «نيوتن»

وكان شيللى نباتيا ، يعتقد أن « تجنب الاطعمة الحيوانية يساعد على صفاء الذهن ونشاط القريحة» .. وكان طعامه الرئيسى هو الخبز ، بحيث كان كلما أحس بالجوع وهو فى الطريق يدخل أحد المخابز فيبتاع منه رغيفا يضعه تحت أبطه ثم يمضى فى طريقه وهو ينهش لقمات من الرغيف ويبتلعها فى عجلة وشراهة !

وبلغ من زهده فى الاطعمة الفاخرة أن صديقا له يدعى « هوج » كان يزوره يوما فجاء على لسانه ذكر كعكة «البودنج»، فقال شيللى معلقا : « ان البودنج أذى وبلاء ! » .. لكن شيللى برغم « نباتيته » كان يسمح أحيانا لزوجته هارييت ـ أو عشيقته مارى ـ بأن تقدم لضيف من ضيوفهما دجاجة « مقتولة غيلة ! »

على نفقته كتيبا صغيرا عنوانه « نداء الى الشعب الايرلندى » دعا فيه الى التحرر من « البخل وادمان الخمر والظلم والحماقة والخرافات والخوف » ٠٠ لكن الايرلنديين نظروا الى صاحبنا نظرتهم الى مجنون ، فقد كان العدو الوحيد الذى يريدون تحرير أنفسهم منه هو « سيطرة بريطانيا » ٠ ومن ثم طلبوا ــ فى أدب ــ الى « محاميهم » المتطفل أن يدعهم وشأنهم !٠٠ فحزم وزوجته ثيابهما واستقلا أول سفينة عائدين الى انجلترا ٠٠!

*

◆ **وهناك** استأجر الزوجان بيتا خشبيا فى « لينموث » شاركتهما فيه بعد حين شقيقة الزوجة العانس ذات الطبع الحاد « اليزا » ٠٠ لكن ظلالا من الشقاء بدأت تخيم على جو الاسرة ، فان هارييت ــ الزوجة ــ صارت تسىء فهم شيللى ، واليزا ــ شقيقتها ــ تثير أعصابه ، والجماهير تهاجمه لالحاده! ٠٠ فلم يجد له ملاذا من كل هذا الا فى الشعر ، دنياه الخاصة الحافلة بالخيالات والخرافات ، أو « أرض السناء والحكمة والرحمة والعدالة والحب» على حد تعبيره ، والجنة التى لا يطأها الحزن والاسى

وحاول أن يمزج شعره بفلسفة معبوده القديم « جودوين » ، وتاق الى التعرف به ، فكتب اليه خطابا يشرح له فيه اعجابه به ويطلب الاذن بمقابلته ٠٠ فجاءه الرد بالقبول

حاوى مدد !

◆ **كانت اول مناسبة اثارت فى شيللى ميله الى كل ما يتصل بعلوم الكيمياء ــ وهو الميل الذى لازمه طول حياته ــ عندما زار مدرسته الاولى (سيون هاوس) بهلوان دجال عرض على التلاميذ الوانا من حيل الحواة ! .. وقد شغف شيللى على الاثر بهذه الالعاب الى درجة انه حين حرم اثناء التحاقه بكلية (ايتون) من دراسة الكيمياء ، صار يجرى التجارب فى غرفته الخاصة سرا !**

لكن صنمه المعبود تحطم فى نظره حين وجده انسانا عاديا، ينوء بفقره وبزوجته الشرسة ذات العوينات السميكة واللسان الحاد ، ثم بمجموعة نسله من زيجاته المتعـددة .. **ولم يشـفع له لدى الشاعر الشاب غير ابنته « مارى » ذات الشعر الذهبى والوجه الجميل والعقل الراجح « الخليط النادر الذى قلمـا يجتمع فى عالم يتنافر فيه غالبا الجمال الجثمانى والعقلى ! »**

ومن فوره وقع شيللى فى هوى عذراء السابعة عشرة .. ولم يلبث أن فر معها ـ كعادته ! ـ وهجر زوجته هارييت .. منتحلا لنفسه فى نظر نفسه جملة أعذار ومبررات : منها أن وجـود « الجاويش » اليزا فى بيته أحال حياته العائلية جحيما لا يطاق .. فضلا عن خيانة زوجته له سرا مع أكثر من عشيق ، الامر الذى كان شيللى ليغفره لها لو أنها صارحته به منذ البداية ، فهو يؤمن بالحرية فى الحب كما يحبذ الاحسان بالمال ، لكنه لا يقر السرقة فى الحب كما لا يقر السرقة فى المال !



وتطبيقا لهذه « النظـرية » الاخلاقية صارح شيللى زوجته باعتزامه ان يهجرها كى يعيش مع امرأة اخرى ، واعتبر هذا الاعتراف مرادفا للطلاق الخلقى، وعوضا عن الطلاق القانـونى ! لكنه حين طالب بحضانة ابنته منها المدعوة « ايانت » بحجـة اهمال امها اياها وعدم لياقتها لتربيتها ، ابى عليه القانون ذلك ورفضته المحاكم .. بل اجبره المجتمع على «تطهير انجلترا من

وجوده الدنس هو وحبيبته مارى » ٠٠ فاضطرا الى مغادرة البلاد ٠٠ !

وقد ترك شيللى لزوجته فى البداية النصيب الاكبر من ايراده ، لكنها حين عاشت علانية فى كنف أحد عشاقها ، اعتبر نفسه معفى من التزامه بالانفاق عليها ٠٠

وبرغم ذلك فانه حين بلغه ، بعد مضى عامين ، نبأ انتحارها حزن عليها حزنا شديدا ، لا لانه شعر بمسئوليته عن المأساة ، وانما لان نفسه المرهفة الحساسية لم تكن لتحتمل أى ضر يصيب كائنا ما من البشر ، فكم بالاحرى وقد أصاب امرأة شاركته حياته فترة من الزمن !؟

*

◆ **نزح** المنبوذان ـ شيللى ورفيقته ـ الى القارة الاوربية حيث عاشا معيشة بوهيمية دامت عشر سنوات ، كان ايراد الشاعر خلالها لا يكاد يفى بمطالبه المتعددة ، لكن ذلك لم يمنعه من أن يشمل بكرمه الكثيرين من أصدقائه وزملائه ٠٠ وهكذا كان شيللى يدفع غاليا ثمن عجز قلبه الرقيق عن تحمل رؤية غيره يتألم ٠٠

وبرغم ذلك فقد قدر له هو أن يتألم طيلة حياته ، فقد كانت أيامه أشبه بموكب من حوادث الوداع والحرمان من أحبائه الذين ماتوا على التتابع : **فبعد انتحار زوجته هارييت تبعتها**

حرية الحب !

◆ **من طريف امثلة شذوذ ((شيللى)) انه حين فر مع عشيقته اليافعة ((مارى جودوين)) كتب الى زوجته خطابا ينبئها بفراره مع فتاته ويطلب اليها ان تلحق بهما فى البلدة التى ذهبا اليها ٠٠ ثم ختم خطابه بهذه العبارة :**

ـ وارجو منك ان تحضرى معك صفارة ((الفلوت)) التى تخصنى كى اعزف عليها الحانى المحببة ٠٠

« فانى » أخت عشيقته مارى ، التى أحبته من بعيد الى درجة العبادة ، فلما فشلت فى غرامها اختارت الموت طائعة !.. ثم لاحقته مآسى وفاة أطفاله من مارى ، الواحد بعد الآخر ، فمات الاول بعد ولادته بأسابيع ، وماتت الثانية « كلارا » فى عامها الثانى ، ثم فقد الشاعر طفله الثالث «ويللى» الذى كان اعزهم عليه ، وكان شبيه أمه فى شعره الذهبى ، وشبيه أبيـــه فى عينيه الزرقاوين ..

وتابع البوهيميان الحائران تنقلهما القلق فى أرجاء أوربا ، تاركين وراءهما ظلال الاحزان فى كل مكان .. واينما ذهبا كان شيللى يكتب أشعاره ، جاهدا أن يغرق دنياه الحزينة فى غمار عوالمه السحرية ذات الالوان الزاهية ، أو على حد قوله : « لقد علمت غيرى بأناشيدى ما تعلمته من الالم .. » .. وكانت تمضى عليه أيام يستغرق فيها فى فنه فينسى طعامه وشرابه ، وتفوته وجبات بأكملها !.. كان يعيش كالغريب فى دنيا البشر، يتجنب مجتمعاتهم ، ويقضى اكثر اوقاته فى الغابات والجبـــال ، او فى زورقـــه الصـــغير .. الانهـــار تتحدث اليه ، وامواج البحــر تضحك له ، واوراق الشــجر تعزف له موسيقاها الرائعـــة ، وسحب السماء تتتابع فـــوف راسه كسرب من الحمام الابيض !



وكان يؤمن بقانون واحـــد يسيطر على النجوم فى مساربها وعلى البشر فى مصائرهم ، هو قانون الجمال ، الذى لو ترجم

يتنكر كضابط !

◆ فى سنة ١٨١٤ - وكان شيللى فى الثانية والعشرين ، ابا لطفلين من زوجته هارييت - زار بيت أبيه فى (ميدان فيلد) لاول مرة بعد فصله من جامعة اكسفورد بسبب اتهامه بالالحاد . وكان ذلك الفصل قد اغضب اباه واحنقه عليه ، لكن الصلة بينهما لم تكن ساءت الى الدرجة التى يستحيل معها اصلاحها ، بحيث كان فى وسع الاب لو شاء ان يعيد المياه الى مجاريها مع ابنه .. لكنه بدلا من ذلك استقبله بفتور جعله يحس ان بقاءه غير مرغوب فيه .. بل ان فزعه من ان ((يضبط)) وهو يأوى تحت سقفه ابنه الملحد المتحرر التفكير جعله يجبر شيللى على أن يتنكر أثناء اقامته عنده باسم صديق مزعوم للاسرة يدعى ((كابتن جونز)) ، وان يرتدى بالفعل سترة ضابط فى المناسبات التى يظهر فيها مع افراد العائلة امام الناس !

الى الشعر لكان معناه الحب ، ولو فسرناه بلغة السياسة لكان معناه العدل ٠٠ **ومن ثم كان هدف شيللى الاول أن يمحو المظالم من الارض ، ويشيع الحب فى أرجائها ٠٠ أن يحرر الانسانية من طغيان الانسان ويزيل كل ألوان الاضطهاد تحت الشمس ٠٠ فقد أراد دنيا بلا عدوان ، ولا كراهية ، ولا رذيلة ، ولا استبداد ، ولا مجاعة ٠٠ وود لو طعم كل القلوب بالشفقة ، وبذر فى جميع النفوس شريعة الحب ٠٠!**

*

◆ **وكان** شيللى شغوفا بالبحر، لكنه لم يكن يعرف السباحة، التى هى فى نظره تحوط سخيف ضد الموت ، لانه كان يخشى الحياة أكثر مما يخشى الموت ٠٠ ويعتبر الحياة هى السر الاكبر والموت هو مفتاحه ووسيلة حله ٠٠ وذات يوم ، بينما كان يستحم فى نهر « الارنو » مع صديق له حمله الموج الى القاع فتمدد فيه بلا حراك دون ان يبذل اية محاولة لانقاذ نفسه ، وحين خلصه صديقه قال ساخرا : « انى دائما أنشد القاع لان الحقيقة كما يقولون تكمن فيه ، ولو تركت فيه دقيقة أخرى

لاكتشفتها .. وما الحياة سوى القناع الذى يحجبها ، والذى يرفعه الموت .. »

ولم يمض زمن قصير حتى رفع القناع ، وكان شـيللى فى التاسعة والعشرين حين مات ، وبرغم ذلك فقد افلح خلال حياته القصيرة فى أن يضيف فصلا ضافيا الى انجيل ديانة الحب !

خرج مع صديق الى نزهــة فى قاربه الجديد عبر خليج « سبيزيا » .. وفجأة هبت عاصفة ، لم تدم سوى عشرين دقيقة .. وحين سكنت ، كان القارب قد اختفى ، وشيللى قد ابتلعته دوامة .. !

وبعد أيام وجدوا جثته وأحرقوها فى مشهد رهيب ، وحين تصاعد لهيبها فى الجو عجز صديقه الشـاعر « بيرون » عن تحمل وطأة الموقف فخانته أعصابه ومضى .. بينما بقى صديقه الآخر « تريلونى » يرقب الجسد وهو يضمحل فى النـار .. وبعد ثلاث ساعات لم يكن باقيا منه سوى القلب ، فانتزعه تريلونى من النار .. واحترقت يده أثناء المحاولة !

وفى مدافن البروتستنت بالمدينة الخالدة دفن القلب الذى انبثق منه شعر الحب الخالد !

سر صداقته مع بيرون !

◆ كانت اقوى نزعات شيللى واكثرها غموضا ولعه بالماء والزوارق والسباحة ، برغم تنبؤه لنفسـه فى كل مناسبة بأنه سـوف يموت غرقا ! .. وفى سنة ١٨١٦ ارتبط الشاعر بصداقة حميمة فى مدينة جنيف مع زميله الشاعر « الدون جوان » لورد بيرون . وكان سر صداقتهما ميل كليهما الشديد الى التجديف وركوب الزوارق اكثر من ميلهما المشترك الى الادب والشعر ! وهكذا كانا كثيرا مايركبان زورقا يطوفان به فى بحيرة جنيف فى الليالى الجميلة .. وذات ليلة هبت عاصفة مفاجئة امالت الزورق على جنبـه بحيث تسرب اليه الماء ، فترك الشاعران الامواج تتقاذف زورقهمـا والريح تزأر فى آذانهما وانهمكا فى جدل عنيف : بيرون يفخر ببراعته فى السـباحة وقدرته على انقاذ شيللى من الغرق ، وشيللى يؤكد فى برود انه لن يسمح لصديقه ان ينقذه من مصيره المحتوم !

« يدمن » القراءة !

◆ كانت حياة شيللى عبارة عن فترات متعاقبة من النوم والقراءة .. وكان يبلغ به الاعياء من فرط السهر للمطالعة أن النعاس كان يغلبه فى النهار فينام فجأة فى أى مكان كالطفل ! .. وأثناء دراسته فى اكسفورد كان ينفق فى القراءة ست عشرة ساعة من كل أربع وعشرين ، بحيث كانت عيناه لا تفارقان الكتاب حتى وهو يأكل أو يمشى ، فى شوارع المدينة أو طرقات الحقول .. وكانت عادته المفضلة فى تلك الفترة أن يقرأ وهو واقف ، ما استطاع !.. وقد روى صديقه «تريلونى» انه ترك شيللى فى الساعة العاشرة من صباح أحد الايام وكان واقفا بجوار مدفأة غرفة مكتبه يقرأ .. ثم عاد اليه فى الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه فوجده ما يزال واقفا فى نفس الموضع ، يقرأ .. وكان بادى الشحوب والاعياء.. وعلم منه الصديق انه لم يغادر مكانه أو يجلس أو يأكل منذ تركه فى الصباح !!

إقرأ معى :



كتاب الشهر

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى هذا الباب فى اعداد سابقة من (كتابى) الكتب الشائقة التالية :

- **آراء جريئة فى الحياة للفيلسوف الانجليزى المعاصر ((جود))**
- **آراء جريئة فى السياسة : لبرنارد شو**
- **كيف نجحوا فى الحياة : لديل كارنيجى**
- **الحياة فى موسكو : هارولد ليكوك**
- **مراهق : البرتو مورافيا**
- **آلهة ومقابر وعلماء : سيرام**

واليوم أقدم لك فيما يلى هذا الكتاب الدسم الذى يتحدث فيه اميل لودفيج عن شعبه الالمانى العظيم ذى الطاقة الحيوية الخارقة والقدرة الجبارة على النهوض من كبوة الهزيمة عقب كل حرب بسرعة لا تصدق ..!

وفى الاعداد القادمة ازمع ان اقدم لك فى هذا الباب مزيدا من الكتب الممتعة ..


LES ALLEMANDS
Par
EMIL LUDWIG
الألمان
شعبا.. وعبقرية
للكاتب الألماني الكبير: اميل لودفيج
هتلر
بسمارك
هندنبرج
غليوم
بيتهوفن
ڤاجنر
جوته
نيتشه

الكتاب ..

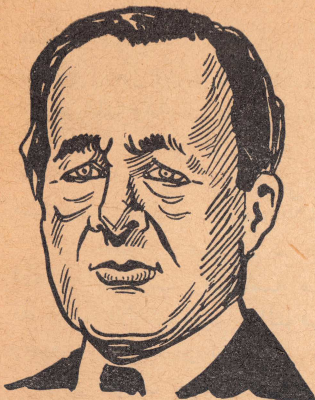
◆ لعل مما يجعل لهذا الكتاب اهمية خاصة ، ان مؤلفه ـ فوق انه اديب وباحث مشهود له بدقة البحث وسعة الاطلاع والافق ـ هو قبل كل شيء المانى الاصل .. ومن ثم فهو اقدر الكتاب على فهم وتحليل العقلية والخصائص المميزة للشعب الالمانى . ولن يغض من المانية « لودفيج » انه هجر بلاده وخلع عنه جنسيته ليتجنس بالجنسية السويسرية .. كما لن يغض من عظمة الشعب الالمانى تحامل لودفيج عليه فى هذا الكتاب الى حد ما ، وتحيزه للديموقراطية الامريكية تحيزا ملحوظا ، ربما بتأثير حقده الشخصى على هتلر ومعارضته لنظام الحكم المطلق الذى حكم به المانيا طيلة اثنى عشر عاما . وربما بحكم تأثره بالبيئة التى عاش فيها طيلة السنوات الست السابقة لوضعه ، او حرصه على مجاملة الدولة التى فتحت له صدرها برغم انتسابه فى الاصل الى دولة الاعداء ..!

على أنك اذا أخذت حذرك من هذه الناحية ، فقرأت الكتاب وانت عليم بهذا المأخذ الذى آخذه أنا شخصيا عليه ، واذا وطنت نفسك على أن تتقبله كوحدة كاملة لا تتجزأ ، أى بحسناته وعيوبه .. فانك لا شك واجد فيه تحليلا عميقا ودراسة مستفيضة ممتعة للشعب الالمانى المناضل ، الذى ينتزع اعجاب العالم بحيويته الخارقة فى هذه الايام كما انتزعها فى زمن الحرب ..

.. والكاتب

◆ وقد ولد « اميل لودفيج » فى مدينة (برسلاو) يوم ٢٥ يناير سنة ١٨٨١ .. ومارس التجارة فترة من الزمن فى شبابه الباكر ، ثم درس القانون ومارس المحاماة .. لكنه لم يلبث ان احترف الادب ، وتفرغ للانتاج فى ميدان الشعر والنثر بوفرة ، وكتب عددا من المسرحيات التى مثلت على المسرح الالمانى والاوربى ومنها : آل بورجيا ، نابليون ، تريستان وايزولد ، اتلانتا ، ثم باليه « اريادن » .

وقد قضى لودفيج فترة من الزمن فى انجلترا قبيل الحرب العالمية الاولى ، درس خلالها الاتجاهات الحديثة فى الادب .. فلما نشبت الحرب اختارته احدى صحف برلين مراسلا لها فى الدوائر السياسية بدول اوربا الناطقة بالالمانية . وفى تلك الاونة كتب روايتى : « مانفريد وهيلينا » و «ديانا» ، ثم بعض القطع المسرحية والمشاهد القصيرة .. وكان قد بدا يتبلور اتجاهه



الى دراسة ترجمة حياة الكثير من الشخصيات التاريخية من زاوية « انسانية » تعتمد على ابراز الحافز السيكولوجى فى حياة كل شخصية بأسلوب مبتكر قوى الحيوية ..وقد بدأ هذه السلسلة من التراجم بحياة جوته ، سنة ١٩٢٠ .. وفاجنر وبسمارك ، سنة ١٩٢٢ .. ونابليون، سنة ١٩٢٤ .. وغليوم الثانى ، سنة ١٩٢٥ .. والمسيح (ابن الانسان) سنة ١٩٢٨ .. وقد نقلت كل هذه التراجم الى الانجليزية فور صدورها

وقد عاش لودفيج المدة بين سنتى ١٩٠٦ وسنة ١٩٤٠ فى سويسرا ، بصفة شبه مستمرة ، وحصل على الجنسية السويسرية .. وفى سنة ١٩٤٠ ارتحل الى الولايات المتحدة حيث أقام طيلة سنوات الحرب الثانية والى أن مات ، سنة ١٩٤٩

ومن أهم مؤلفاته خلال الخمسة عشر عاما الاخيرة من حياته كتب : «النيل» (١٩٣٦) .. روزفلت (١٩٣٨) .. سيمون بوليفار .. ثم البحر الابيض المتوسط ، ١٩٤٢ .. واخيرا هذا الكتاب الممتع الذى اقدمه اليك فيما يلى :

خصائص أصيلة .. ام ظروف تعسة ؟

◆ **لطالما** تساءل الناس منذ أوقدت المانيا نار الحرب العالمية الثانية ، كما أوقدت نار الاولى ، هذا التساؤل الحائر : « ترى هل هناك عوامل معينة تجعل الالمان هم البادئون دائما بالعدوان، وبشن نيران الحروب الاوربية ، ثم العالميه ؟

واذا كانت توجد عوامل كهذه ، فهل هى خصائص متأصلة فى الجنس الالمانى ، أم هى مجرد ملابسات وظروف طارئة لم تتكرر من القوم الا بفعل المصادفات التعسة ، وبدافع الضغط المرهق والحاجة الملحة ؟

.. ثم اذا كان الامر أمر خصائص متأصلة فى العقلية الالمانية فكيف السبيل الى تغيير تلك العقلية العدوانية واستبدالها

بعقلية مسالمة تساهم فى انشاء عالم جديد يسوده الاستقرار والتحرر من الحروب ؟ وكيف ينبغى أن يعامل الحلفاء المنتصرون المانيا المهزومة – شعبا وحكومة – لضمان بلوغ هذا الهدف الاسمى ، وحتى لا تتكرر الاخطاء والمظالم التى ارتكبوها عند عقد معاهدة فرساى ، وهى الاخطاء التى ما فتىء الالمان يحملونها مسئولية نشوب الحرب الاخيرة ؟

.. تلك ، وعشرات غيرها ، اسئلة لم تكف عن أن تشغل أذهان الشعوب والساسة منذ نشبت الحرب الاخيرة ، ثم تضاعف الاهتمام بها والتوفر على ايجاد حلول واجابات لها منذ وضعت الحرب أوزارها فى مايو ١٩٤٥ .

والواقع أن غزو المانيا حربيا ، ثم اقتصاديا ، لن يكفى لمنع تهديد السلم فى المستقبل ، وانما العامل الاهم من هذين هو غزو المانيا روحيا ، أى تغيير عقلية العدوان الالمانية عن طريق تغيير برامج التعليم وأساليب التربية والتثقيف التى تسيطر على توجيه الشبيبة الالمانية وتنشئتها على النزوع الى الشر وشن الحروب كلما سنحت الفرصة ..

فالالمان – فى رأى لودفيج – لا يؤمنون بالديموقراطية كما تفهمها بقية الشعوب ، واذن فان أول واجب يقع على عاتق أفراد قوات الاحتلال المتحالفة – ومن خلفهم ساسة بلادهم – هو فهم الروح والعقلية الالمانية على حقيقتها ثم تطبيق هذا الفهم على أساليب معاملتهم للشعب الالمانى المهزوم ، سواء سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا . وعلى هذا الفهم يتوقف نجاح دول الحلفاء فى منع الاسباب التى تغرى الالمان بشن الحروب فى المستقبل .. **منعها من أن تنشأ وليس قمعها بالقوة بعد أن تنشأ وتستفحل ! . وربما كان فهم الخلق الالمانى على حقيقته كفيلا بمنع نشوب الحرب العالمية الثالثة ، لو أنه تحقق فى الوقت المناسب ، ذلك أن مبادىء وعقلية الحزب النازى ليست الا وليدة خصائص النفس الالمانية ومظهرها المعبر عنها اصدق التعبير .. وان**

واجب كل انسان مخلص للانسانية فى هذه الفترة التوجيهية الهامة من تاريخ العالم هو تفضيل تحقيق السلام للعالم على تحقيق الرخاء لالمانيا ، ولو كانت وطنه ! • (وهذه صيحة من لودفيج تهـدف الى تغليب فكرة التعصب للوطن الانسانى الاكبر ـ العالم ـ على نزعة التعصب للوطن الخاص الاصغر •• ومن ثم فهو ينادى باعتناق مبدأ « العالمية » والكفران بالوطنية !)

الخلق الالمانى

◆ **والخلق** المميز لشعب من الشعوب هو خلاصة العناصر والخصائص التى يختص بهـا الشعب فى مجموعه ، ولو لم تتوافر كلها فى شخصيه كل فرد من أفراد ذلك الشعب • وقد نعرف جنسية الشخص بمجرد رؤيته فى فندق أو قطار أو على ظهر سفينة ، من مجرد ملاحظة شكل جمجمته أو طريقته فى المشى أو الكلام . فنقول مثلا « هذا طراز انجليزى ، أو طراز سلافى ، أو طراز شعوب البحر الابيض •• الخ » •• فالسحنة اذن قد ترشد الى جنسية الشخص ومن ثم الى خلقه الغالب • ولو طبقنا هذا المقياس للمقارنة بين الالمانى والامريكي المعاصرين ـ من حيث ما آل اليه كلاهما نتيجة عوامل الوراثة والتـاريخ والعادات ـ لكان أول مايلفت النظر فى الامريكى قوة احتماله وثقته بنفسه وطلعته السمحة الصافية حين يقابلك، فهو يرسل نفسه على سجيتها بلا تكلف أو خوف •• بعكس الالمانى الذى يعيش دائما تحت وقر القلق والحذر وارهاق الاعصاب ! •• وبينما الامريكى يستمد ثقته بنفسه من نفسه ، تجد الالمانى يستمد نصيبه الضئيل منها من مسلك محدثه أو الشخص الذى يعامله ، فهو لا يكف عن التساؤل عن حقيقة آراء الناس فيه • وما من صورة توضح هذه الخصلة بقدر ما يوضحها حرص هتلر الدائم واهتمامه بمعرفة رأى العالم فى الالمان ، وحكمه على هذا أو ذاك من تصرفات زعمائهم !

ويتفرع عن هـذا اختلاف نظرة الفرد الى الدولة فى كـلا الشعبين : فالامريكى ينظر الى الدولة ـ والى أى مجتمع آخر ـ كواد يعيش فيه الجميع فى مستوى واحد يكفل لكل منهم نصيبا وافرا من الثقة بالنفس ،اذ يستطيع الاصلح والاجدر أو الاقدر أن ينهض من ادنى مستوى الى اعلاه ، وأن يتفوق على الآخرين فى المركز أو المال أو العمل الفنى ٠٠ **أما الالمانى فيرى الدولة ـ أو أية جماعة أخرى ـ على شكل هرم ضخم ، ليس هو فيه غير مجرد « حجر » واحد يسند حجرا آخر فوقه ويستند هو على الحجر الذى تحته !٠٠ فكلما وجد نفسه مرتفعا كلمـــا أحس بالراحة ٠ وأقصى ما يطمع فيه أن يصل الى مركز يمكنه من أن يلمح كعب حذاء الرئيس الذى يجلس فوق قمة الهرم ، سواء أكان هذا الرئيس هو قائد الجيش أو صاحب العمل أو الفوهرر أو القيصر ! ٠٠ الخ**

والامريكى لايتردد فى خدمة أى انسان يجده فى ضيق ، سواء صادفه فى الشارع أو الترام أو ٠٠أو ٠٠ وذلك بتأثير فروسية متوارثة عن أجداده رعاة البقر ٠ أما الالمانى فحين يجد نفسه فى موقف مماثل يبادر بالاعتذار بأن وقته لا يسمح له بالتوقف لمد يد المعاونة ، وهو فى هذا متأثر بفكرة (الهرم) التى تهيىء له أنه لو خرج عن خط سيره الطبيعى قيد أنملة أو توقف فى الطريق لحظة ، لعرض بناء هرم الدولة للتصدع ! ٠٠ وهذا الارهاق المتواصل للنفس يخلق شعورا باطنيا بالقلق ، يحرم الالمانى من أن يستمتع بحياة طليقة مرحه ٠٠ فهو حتى فى لهوه يخضع لنظام و (ريجيم) صارم ٠ وما اللهو عنده الا مهمة جدية !! ومن هنا تجده فى ساعة لهوه يفكر فى صفقة مادية ، أو عمل فنى ، أو يستعد لمعركة !٠٠ **وهو لا يستسيغ ان يضيع نصف ساعة على مقعد الحلاقة ، فكلمة (الاستجمام) ليس لها مرادف فى القاموس الالمانى ٠٠ ومن ثم كان الالمان أسرع من الامريكيين فى انجاز الاعمال ٠٠**

وبقدر ما تجد الامريكى (رياضيا) فى معاملاته وفيا بالتزاماته التى ليس لها اثبات كتابى ولا يشهد بها شهود .. تجد الالمانى على العكس (رسميا) فى جميع معاملاته ، والالمان هم أول من أدخل الى الشرق الاقصى نظام العقود المكتوبة ، منذ مائة سنة . أما قبل ذلك فكان الصينيون يكتفون بمبدأ التعاقد الشفوى المأخوذ عن الانجليز . ولعل انعدام ثقة الالمانى بغيره ناشىء عن نقص ثقته بنفسه ، كما سلف القول ..

طموح الالمانى .. وتفاهة مطامع الامريكى !

◆ **وفى** الميدان العقلى تعبير صارخ عن ذلك (القلق) الذى يساور الالمان ، وهو نزعة الطموح الدائم الذى لايمكن اشباعه ! فشخصية « فاوست » بطل رواية « جوته » المعروفه بهذا الاسم هى نموذج دقيق للالمانى ، فهو لا يقنع بحاضره قط ، ومهما بلغ من نجاح وارتقاء يظل عاجزا عن الاحساس بالسعادة والقناعة اللتين تجود بهما الحياة على أمثاله .. ورغم ذلك فهو لا يكف عن السعى وراءهما سعيا دائبا لا ينى ! ولعل أبرز ما يوضح هذه النزعة فى الالمانى أن نقارنه بالامريكى ، وليكن أحد جنود الاحتلال المقيمين فى المانيا ذاتها ، **فاذا نحن نجد الاخير يفسر السعادة تصويرا تافها فى متناول اليد : يتصورها فى ساعة يقضيها مع فتاة تحت ضوء القمر ، أو رقصة مختلسة بين أوقات العمل ، أو نزهة فى قارب .. الخ**

على انه ليس من الانصاف تفسير هذا الطموح او (الشبق) الدائم عند الالمان بأنه ينصرف الى جمع المال ـ فهم فى هذا أقل كثيرا من الامريكيين ـ وانما هم يجعلون همهم الاوحد تسنم ذروة القوة والمجد والسلطان ، أو بعبارة أخرى كل ما يشعرهم بالسيادة والتسلط .ويرجع نصيب كبير من نجاح هتلر فى التزعم الى أنه ضرب للشباب على هذا الوتر الحساس ، واشعل

فيهم حمى كانت جراثيمها كامنة فى دمائهم من قبل ٠ فالالمانى لا يحارب طمعا فى ان يعود عليه النصر برصيد مالى فى البنك ، أو منزل أفخر ، أو سيارة ـ وهى ما يتحلب من أجلها لعاب الامريكى ! ـ وانما هو يخف الى القتال سعيا وراء سراب خادع براق هو الحظوة بمركز أسمى وأرفع فى ذلك (الهرم) الخالد ، سواء كان هذا المركز لنفسه فى هرم المجتمع الالمانى ،أو لوطنه فى هرم المجتمع الدولى !! ـ وهكذا تجده يمضى فى تسلق الهرم فى صبر وتؤدة حتى يبلغ القمة أويموت دونها ! وهو فى تسلقه هذا يضطر الى أن يدوس هامات (الاحجار) التى تحته فيبدو للعالم أكثر توحشا منه فى حقيقته ٠٠٠ أما الخشونة واللهجة الجافة المأثورة عنه فهىعنده من علامات الرجولة لاالقسوة، ومن آثار التنشئة العسكرية التى رضعها وشب عليها ٠ فنظام الهرم يتيح لكل ألمانى أن يتمتع بكلا اللذتين : لذة تلقى الاوامر ، ولذة اصدارها ٠٠ لان لكل (حجر) رئيسا فوقه ومرؤوسا تحته !

مزايا ٠٠ ومساوىء

◆**على** أن للنظام العسكرى الالمانى مزايا فى الحياة المدنية أهمها الدقة التى تلمسها فى كل فروع الانتاج الصناعى ، وخاصة فى انتاج الآلات الدقيقة وعدسات النظارات وآلات التصوير وسائر ما تخرجه مصانع « زايس » مثلا ٠٠ ثم هناك من مزايا الروح العسكرية ميزة الامانة والتزمت ، فان محاولة راكب قطار فى الدرجة الثالثة أن يدفع (بقشيشا) للمعاون أو الملاحظ كى يمنحه التسهيلات ووسائل الراحة المعدة لركاب الدرجة الثانية ، لن تجلب لصاحبها غير المتاعب !٠٠ **وقد يكون وراء هذا التزمت شىء من الكبرياء القومى يدفعه الى التضحية بمنفعته الشخصية فى سبيل اعلاء سمعة وطنه ٠**

عبادة القوة لا الحرية

◆ **ومن** أدلة عبادة الالمان للقوة ، لاللحرية ، انك لا تشاهد فى مدنهم وميادينهم تمثالا لبطل من أبطال الحرية، كما فى سائر البلاد ، بينما تجد آلافا من التماثيل التى تصور القوة والجبروت والحرب .. فالحرية فى المانيا ليست الا أسطورة لا تجدها الا فى قصائد الشعر . وبينما الدولة فى أمريكا أشبه باتحاد يجمع بين ملايين الافراد الذين وكلوا عنهم لحكمهم بضعة آلاف من الموظفين والحكام .. ترى الدولة فى المانيا اشبه باله يجلس على عرش يناطح السحاب ، وما (الموظف) فيها الا (كاهن) يتعبد للاله غير المنظور ! واكثر ممثلى الدولة تمتعا بالسطوة فى المانيا رجال البوليس ، فالجمهور يخشاهم أكثر من أية فئة أخرى ، **ولكنه يحبهم ايضا ، تماما كما يعبد بعض النساء « الرجل القوى » الذى يبعث الرعب فى أوصالهن !!**

وفى كل مجتمع ديموقراطى ينحاز الرأى العام عادة الى جانب الفرد العادى فى حالة أى خلاف بينه وبين أى رجل حكومى .. الا فى المانيا ، فانك تجد الجميع فيها يشهدون بأن « الرجل الرسمى » على صواب . وكيف لا يكون كذلك وهو مبعوث (الدولة) على الارض ؟.. ان حقه فى المنع والقمع هو فى نظر الالمان عماد الامن والنظام . والنظام فى المانيا مفضل على الحريه !

والسائح فى المانيا تلفت نظره كثرة اللافتات التى تحمل أوامر المنع VERBOTEN فى كل شارع أو مكان .. واذا كان الطبيعى أن ماليس ممنوعا فهو مباح ، الا ان الالمان يعتبرون كل ما ليس منصوصا على اباحته ، ممنوع .. واللافتة الامريكية التى تقول «الرجا اغلاق الباب» يقابلها فى المانيا أخرى تقول « ممنوع ترك الباب مفتوحا والا .. » ثم يلى ذلك النص على عقوبة المخالفة !

والالمانى أقل من الامريكى شغفا بالدعاية لنفســـه واكثر انكارا لذاته ٠٠ سواء فى تبرعه للاعمال الخـــيرية سرا أو فى التقتير على نفسه لتوفير رصيد كاف لتعليم وتنشئة أولاده ٠٠

ومن مظاهر شغف الالمان بالغزو والسيطرة ولعهم بالاسفار والترحال الى البلاد الاخرى ٠ ولعل تفسير تطلعهم الدائم الى الخارج ـ سواء بالغزو أو الرحلات ـ ان المانيا بلد فقير قليل الخيرات ، فمن الطبيعى أن يطمع فى اجزاء من فرنســا أو من شاطىء البحر الابيض المشمس أو غيرها من أراضى الله المباركة التى تدر لبنا وعسلا ٠٠ مثله فى ذلك مثل رجل جائع يربض عند أسوار حديقته المتواضعة وهو يتطلع بعين نهمة الى خيرات جاره !

الولع بالموسيقى ٠٠ والاسرة

◆ **واذا** قورن الالمان بالانجلوسكسون بدت فى الاولين ظاهرة أخرى واضحة هى أنهم سواء فى لهوهم أو آدابهم أميل الى الجد ٠٠ فمن الناحية الاولى قلما يخرجون الى الريف للنزهة والتريض فى يوم العطلة مثلا ٠٠ ومن الناحية الثانيـــه يغلب على أدبهم وقصصهم الولع بالمآسى والفواجع ، ويندر أن يوجـــد بينهم أديب واحد يحسن كتابة الملهاة الهزلية ٠٠٠ ولئن كـــان فى حياتهم منفذ سرى للتفريج عن عواطفهم فهو الموسيقى والحياة العائلية السعيدة ، **ذلك أن حياة الاسرة عندهم أكثر تعاطفـــا وتجانسا وثباتا منها فى أمريكا ٠ والشبيبة الالمانية أكثر تأدبا ومراعاة لقواعد السلوك من الشبيبة الامريكية ٠ والاسرة الالمانية العادية تقضى لياليها وأيام الآحاد فى الاستماع للموسيقى والقراءة والنقاش ، والالمــــانى يفوق الامريكى فى اقباله على قراءة الكتب ويقل عنه فى الاقبال على الصحف ٠٠ كما يفوقه فى التعلق بالمخلفات العائلية وصور الاجداد ، وفى الاخـلاص والتشبث بمواطن الذكريات ، والمحافظة على التقاليد واحترام**

ذكرى الموتى .. ثم انه أكثر ترددا واعتناء بالاختيار قبل الزواج ، ومن ثم أقل لجوءا الى الطلاق ..

أما الموسيقى فهى أعمق « متنفس » لاحلام الالمان المكبوتة ومطامعهم الفاشله ، والغريب أنهم قد نجحوا فى الفصل بين الموسيقى والحرب فجاءت موسيقاهم - كشعورهم - خلوا من كل صلة بالحرب أو تعبير عنها . ويلاحظ أن العظيمين اللذين انفردا بكون الشعب الالمانى قد اسلمهما بنفسه مقاليد الزعامة خلال الخمسمائة سنه الاخيرة - وهما لوثر وهتلر - تجمع بينهما صفه مشتركة هى شغفهما الكبير بالموسيقى ! ولعل من سخرية الاقدار أن بلغ نبوغ الالمان فى الموسيقى الى حد أن الحلفاء الذين يحاربونهم لايجدون مقطوعات يعزفونها عند الانتصار عليهم الا المقطوعات المقتبسة من اناشيدهم وموسيقاهم !

المرأة بين الحرب .. والحب !

◆ **كانت** الصحة والجمال دائما من مميزات المرأة الالمانية ، ولكن يبدو أن كلاهما قد كاد يضمحل تحت وقر الاحزان والالام التى قاستها نساء المانيا فى الحربين الطاحنتين . كما ان تسخير المرأة الالمانية كآلة لانتاج النسل - للحروب ! - قد ترك طابعه عليها وأذبل رقتها التى كانت دائما مأثورة عنها ..



هذه المرأة تمثل الرمز التقليدى للشعب الالمانى فى عرف الرسامين العالميين ..

وليس لنساء المانيا ميل الى الاشتغال بالسياسة والحرب ، ولذا قل أن تجد فى التاريخ الالمانى امرأة ذات نفوذ ، سواء ملكة أو محظية ملك ! .. كما تندر بينهن

النابغات فى الفنون .ومن ناحية أخرى يندر أن تجد فى الادب الالمانى قصة حب خالدة ترتفع الى مقام « تريستان » أو « هيلويز » .. أو شعرا فى رقة شعر براوننج .. أو عشاقا مثل « دانتى وبياتريس » أو « باولو وفرانشسكا » أو مدام بومبادور وملكها لويس .. الخ ..

.. واخيرا ، فمن هذا التحليل السيكولوجى للخلق الالمانى نستطيع أن نخرج مع المؤلف بتنائج هامه عن الاساليب التى يراها واجبة فى معامله المانيا .. فان نقص عنايه الحلفاء بدراسه طبائع الالمان هو وحده المسئول عن كثير من الاخطاء السيكولوجية التى ارتكبت فى فرساى ، والتى ظلمت الشعب الالمانى ظلما فادحا ادى الى بقاء العداء كامنا فى النفوس ، حتى انفجر اخر الامر ..

نماذج من الالمان

◆ **ثم** ينتقل المؤلف من تحليل الخلق الالمانى والعقلية الالمانية ، الى التمثيل لهما والتدليل عليهما بصور قلمية لثمان من اشهر شخصيات التاريخ الالمانى ، هى شخصيات : جوته ، وبتهوفن ، وبسمارك ، وغليوم ، ونيتشه ، وفاجنر ، وهندنبرج ، ثم هتلر .. وقد راعى لودفيج فى اختيارها — فضلا عن تمثيلها للخلق الالمانى احسن تمثيل — ان تكون من الشخصيات التى له بها معرفة وثيقة ، فقد سبق ان درس خمسا منها دراسة وافية مكنته من ان يؤلف عن كل منها كتابا ضخما ..

جوته

(١٧٤٩ — ١٨٣٢)

◆ **يتميز** خلق جوته بنفس الغرابة التى تتميز بها عبقريته . وهو اذا لم يكن قد اختار للتعبير عن خلجات نفسه اسلوبا من اساليب الفن التى تفهمها جميع الشعوب ، مثل الموسيقى

أو الرسم ، فانه لم يكتف بذلك .. بل صاغ انتاجه الادبى فى لغة عتيقة هجرها الالمان انفسهم ، او كادوا .. وحسب الناقد تدليلا على هذا الميل فى جوته الى التعقيد ، ان يذكر قصتيه المشهورتين (فاوست) و (ولهلم مايستر) ، اللتين تنافس كلاهما الاخرى فى صعوبة القراءة والفهم ، وقد نتج عن هذا الطابع فى ادب جوته استحالة احتفاظه بكل « خيراته » عند ترجمته الى اللغات الاخرى . ومن ثم لم يترجم الى الانجليزية مثلا من مؤلفاته التى تملا مائة وخمسين مجلدا .. الا خمسة عشر !

والذى يدرس شخصية جوته ثم يقرا قصته (فاوست) يدرك فورا ان جوته حين صور تلك الشخصية انما كان يصور نفسه .. وانه قد اتخذ من « الدكتور فاوست » ـ الساحر الغامض ، والعالم ، والرحالة ـ ستارا يختفى هو وراءه كى يعرض مشكلاته الخاصة .. فجاءت هذه القصة ـ التى استغرق منه وضعها ستين عاما كاملة ! ـ حاملة كل طابع التعقيد والصعوبة الذى تميز به شعر « دانتى »

وقد كانت حياة جوته كلها بحثا مستمرا عن الحقيقة ، تسيطر عليها رغبة ملحة فى فهم الله ، بل ـ لو جاز القول ـ محاولة للوصول الى « التفاهم معه ! » .. ولكن ذلك السعى الدائب لم يبلغ هدفه قط ، برغم كل ما بذل جوته فيه ، ولهذا يصعب على القارىء الاجنبي ان يهضم جوته ، او يعترف له بالزعامة الادبية التى يستحقها ، فالامريكى مثلا اميل الى ان يتخذ ائمته من العباقرة الذين يرسمون للانسان طريق السعادة ، وهذا ما لم يحاوله جوته ، وان كان قد توصل الى الكشف عن صور رائعة للسمو الانسانى ..

ولكن هناك ضوءا اخر قد يعين الاجنبى على فهم جوته ، هو طبيعته « الاستكشافية » .. طبيعة الرائد الذى يسعى الى كشف مجاهل النفس الانسانية . ثم نشاطه المتواصل

الذى يدفعه اليه ايمانه بان السعادة انما تتحقق عند ارهاق كل خلايا والياف الجسم والعقل ! ولو ترجمت مذكرات جوته الخاصة الى اللغات الاخرى لادهش العالم ما تحويه من ادلة النشاط الخارق ، ففى وقت واحد كان جوته فيلسوفا ، وسياسيا ، وشاعرا ، وعالما ، وفنانا ، واداريا ! .. وكانما كان يؤمن برسالة عليه ان يؤديها فى مائة ميدان من ميادين الواقع والخيال ، وهو فى هذا شبيه بـ « ليوناردو دى فنشى » الذى كان مهندسا ومخترعا قبل ان يكون رساما !

وهذه الظاهرة الشغوفة بتعدد نواحى النشاط والانتاج عند جوته هى نموذج دقيق للطبيعة الالمانية .. وكما كان « فاوست » قديرا على الجمع بين السحر والتنجيم والمغامرات الغرامية ، كان جوته قديرا على الجمع بين كتابة القصة والمسرحيات والشعر ، وبين الاشتراك فى السياسة العامة ، ودراسة علم التشريح ، وعلم الاثار .. الى آخر هذا النشاط الفذ الذى هو نموذج للخلق الالمانى .

والناحية الوحيدة من نواحى الطبيعة الالمانية التى لم تتوفر فى جوته هى الميل للحرب والقتال .. فهو لم يحارب قط ، لا لوطنه ولا لنفسه ، حتى حين كانت حياته معرضة للخطر . لكنه كان يفهم روح التعاون فهما صحيحا ، دفعه ذات مرة الى الوقوف ساعات طويلة وسط الماء المثلوج للمشاركة بيديه فى حماية بلدته من الفيضان ! .. وهو لم يحاول قط تبرير اخطاء المانيا وعدوانها ، بل كان صريحا فى المجاهرة لامراء بلده بما يعتقد انه الحق .. **كما كان جريئا فى اظهار اعجابه بعدو بلاده « نابليون » لانه رأى فيه عبقريا مثله ! .. ورغم هذا فقد كان يكره الاشتغال بالسياسة ، ولا تعنيه الوطنية ، والغزو ، والحرب ، عشر معشار ما تعنيه الفنون والعلوم والاخوة العالمية بين بنى الانسان .**

ولم تمنعه نشأته فى بلاط الامراء وتقلبه فى رفاهية القصور من ان ينقد النبلاء نقدا قارصا ، وحين رفعه دوق « فيمار » الى طبقتهم قال ساخرا انه لا يدرى ماذا يفعل بلقبه الجديد !.. وتلازمه هذه النظرة حتى فى حياته الخاصة ، فقد كانت زوجه واكثر النساء اللاتى عرفهن كما كان خاصة اصدقائه من طبقة العامة !

بيتهوفن

◆ **بدات** شهرته « كعازف » على البيانو ، اقصى امانيه ان يتجول من بلد الى بلد ليعرض عبقريته على الناس ، بالعزف تارة ، وبقيادة فرق الموسيقى تارة اخرى . فلما اصيب بالصمم طلق احلامه هذه وقنع بوضع قطع موسيقية من تأليفه ، يعبر بها عن نفسه وخلجاته .. ولم يكن يدور فى وهمه ان تلك المهنة « الاجبارية » التى تسببت عن عاهته هى التى سترفعه الى مصاف الخالدين ! ولم يلبث ان تملكه الاحساس الذى يتملك الغزاة الفاتحين ، شانه شأن اى « امبراطور » المانى ، فظهر اثر ذلك فى مقطوعاته التى ينتهى اكثرها (وتبلغ ٢٥٤ ، منها ١٣٥ اوبرا) نهاية ظافرة ، فيما عدا اربع مقطوعات او خمس ، تنتهى نهاية مفجعة . وفى كل موسيقاه يلمس السامع روح القتال والغزو ، فهى تبدأ بالاسى والحيرة ، ثم تتدرج نحو الوضوح والظفر .. وهو لم يمجد الحرية الا فى مقطوعتين مسرحيتين ، وفيما عدا ذلك كان لا يمل تصوير الانسان فى كفاحه الدائم ..

ورغم العاهة التى ختمت على سمعه وخيمت على الشطر الاكبر من حياته لم يفقد بيتهوفن شعوره بالزهو والترفع ، وكان فى اعتزازه بالشرف وتحمسه له وحساسيته الزائدة بشأنه يفوق اى موسيقى اخر ، باستثناء « هاندل » الذى

كان يتخذه اماما له . ولطالما سببت له هذه الحدة فى الطبع ثورات نفسية ، كان أثرها يظهر على وجهه فى صورة التحدى ، الذى كان ايضا طابع اناشيده واغاريده . التحدى الذى ينبع من الثقة بالنفس ، التى لا تجد لها صدى خارجيا يوازيها .. فقد كان ينقص حياته - وخاصة فى مرحلتها الاخيرة - ذلك التوافق أو الانتظام الذى يسود (سيمفونياته) و (سوناتاته) اذ كان قد قذف بنفسه فى معمعة الكفاح المألوف بين العبقرى والعالم الذى يعيش فيه ! ساعدته على ذلك طبيعتـه التى هى نموذج للمحارب النارى الطبع ، الذى لا يسلم لخصمه قط .. وهو فى هذا المـانى اكثر من جوته . **على انه يشبه جوته فى نشاطه الفائق ، وفى اعجابه بنابليون ، الذى اوحت بطولته اليه بألحان سيمفونيته الثالثة ! .. كما يتشابه جوته وبيتهوفن فى ان كلاهما كان ينأى بنفسه عن الشئون القومية ، ويعتبر نفسه من رعايا دولة فوق العـادة ، اسمى من كل دولة ، هى دولة الفن والروح ، التى يتبعثر رعاياها فى شتى اركان الارض !** واخيرا يختلف جوته وبيتهوفن فى ان الاول كان اقل من صاحبه تعلقا بمظاهر السطوة والنفوذ ، التى جعلت بتهوفن يغضب ويثور اذا لم يعامل كملك .. فمن هـذه الناحية كان جوته دائما يعطى ، وبيتهوفن دائما يطلب !

.. ولكن لياليهما معا ، حين كان جوته يجلس الى صاحبه على انفراد فى غرفة صغيرة فى احدى حانات بوهيميا ، ينصت لعزفه على البيانو .. سوف تظل دائما من اخلد سـاعات التاريخ الالمـانى التى ستبقى ذكراها بعد ان تمحى ذكرى اعظم معارك الحروب . ففى تلك الليالى الخالدة تقابلت عبقريتان ، صاحبتا جلالة ، فأحنت كل منهما راسها للاخرى .. ونسيت المـانيا !

بســـمارك

(١٨١٥ - ١٨٩٨)

◆ **ينظر** الامريكيون الى بســـمارك بمزيج من الاعجاب والحذر ، فهو - كشخصية تاريخية - يذكرهم بواشنطون ، كما انه افلح مثله فى توحيد بضع ولايات صغيرة فى مواجهـــة نار المعارضة المسلحة ! ومن ناحية أخرى فان الحرب النمسوية البروسية (عام ١٨٦٦) تشبه الحرب الاهلية الامريكية التى خاض لنكولن غمارها . ورغم هذا فهناك فارق كبير بين دوافع كل من بسمارك من ناحية ، وواشنطون ولنكولن من النــاحية الاخرى : فبينما حاربت امريكا من أجل الاستقلال اولا ، ثم الوحدة بعد ذلك .. حارب بسمارك - لا حبا فى الوحـــدة ذاتها - وانما سعيا وراء التسلط على مقاليد دولة موحدة .

وما من نموذج يجمع بين اظهار كل من مواهـب ونقائص الساسة الالمان خير من شخصية بسمارك ، الذى كان يدين بعجرفته ، وميله لاصدار الاوامر ، واحتقاره للعامة ، ثم تكوينه الجثمانى .. الى اجداده من طبقة (اليونكرز) ! .. وان كان قد ورث ايضا عن امه ، التى انحدرت من اوساط الشعب ، خصالا اخرى اهمها نبوغه العقلى . ومنذ كان فى الخامسة عشرة من عمره بدأ يلتحم مع امه فى مناقشات سياسية حادة ، وخاصة حين لمس تحمسها لثورة فرنسا فى عام ١٨٣٠ .. ومن كلماته المأثورة قوله فى رسالة الى خطيبته : « ان الرجل العبقرى يكون كالملاك مهيض الجناح : جميلا وحزينا ! » .. وقد كان فى الشاب شىء من طموح (فاوست) ، وكان مدمنا القراءة والاطلاع ، يعجبه شعر الثورات وخاصة قصائد لورد بايرون وشيللر . وعندما كان لا يزال حدثا قام بعدة رحلات الى الخارج ، ودرس اللغات والتاريخ ، لكن الايمان الدينى ظل ينقصه حتى بلغ سن الثلاثين ..

ولعل اكثر ما يدهش العالم من بسمارك توفيقه فى توحيد المقاطعات الالمانية المتفرقة وجعلها دولة قوية ذات بأس ، فى مدة لا تتجاوز الاثنى عشر عاما ! ولكن الناس ينسون انه قد سبقت ذلك محاولات طويلة فى سبيل وحدة المانيا أستمرت سبعين عاما ، قبل بسمارك .. فاذا احاط المرء بهذه الملابسات امكنه ان يفهم كيف استطاع بسمارك ان يحصل بمفرده فى يوم وليلة على مطلبه باستعمال اسلوب القوة والتحدى ، الذى لم يحسن اسلافه استعماله ! **ولكن الامر الذى يدعو الى الدهشة ان هذا الرجل الذى اشتهر بالعنف ، وبسياسة «الحديد والنار» ، كان يتحول فى الوقت المناسب الى «سياسى» مهادن من الطراز الاول . من امثلة ذلك معارضته لرغبة ملكه وقواد جيشه المنتصرين عندما ارادوا استغلال انتصارهم فى حرب ١٨٦٦ ومواصلة الزحف حتى «فيينا» .. فلم يكتف هو بالحيلولة دون ذلك ، بل تعداه الى اجبارهم على عقد صلح سخى يعفى النمسا المهزومة من اى تعويض اقليمى او مالى ! وقد تكرر هذا الموقف من بسمارك عندما عارض فى انتزاع (اللورين) من فرنسا عقب الانتصار عليها سنة ١٨٧٠ ، ولو ان القواد المخمورين بنشوة النصر تغلبوا عليه واهدروا رايه فى هذه المرة . ومنذ ذلك الحين حرص بسمارك على صون السلام فى اوربا طوال العشرين عاما التى بقيها فى الحكم ، قامعا كل عامل يغرى بمهاجمة فرنسا الضعيفة من جديد .. فاثبت بهذا تفوقه فى الحكمة السياسية على فردريك الاكبر**

وقد كان بسمارك خبيرا بالالمان وبنواحى ضعفهم ، فعرف كيف يستغلها . وكان اخص صديقين له طوال حياته من غير الالمان : احدهما روسى والاخر امريكى يدعى (موتلى) .

كما كانت معشوقتاه الوحيدتان اجنبيتين ، احداهما انجليزية احبها فى فجر شبابه ، والثانية روسية أحبها حين

تقدم به العمر . ولم يكن يجد السعادة الكاملة فى انتصاراته السياسية بقدر ما كان يجدها فى صحبة زوجته وخيوله وكلابه كلما خرجوا الى الغابة ، او فى صحبة نبيذه المفضل وموسيقاه المحببة ، موسيقى بتهوفن .. الذى كان يشاركه طموحه (الفاوستى) !.. وبلغ من شغفه بموسيقاه ان طلب قبل رحيله الى ميدان الحرب النمسوية البروسية ان تعزف له سيمفونيته الخامسة !

غليوم الثانى

(١٨٥٩ - ١٩٤٠)

◆ **حفيد** ووريث غليوم الاول .. وكان اول من نجح - عن غير قصد - فى جعل المستشار العجوز بسمارك شخصية محبوبة من الشعب الالمانى ، وذلك على أثر اقالة الامبراطور الشاب له من منصبه فجأة ، الامر الذى اثار عطف الجماهير عليه بعد ان لم يكن بينهما سوى حب مفقود ! ولكن الالمان سرعان ما نسوا الحادث ، وفى غمار الخمس والعشرين سنة التالية تضاعف تعلقهم بسيدهم الجديد - وهى ظاهرة واضحة الدلالة على «ضعف» الالمان الغريزى نحو حكامهم المصابين بالهستريا ، وهى مرض متوارث فى آل هوهنزلرن .. وقد ظهرت اعراضه على القيصر منذ حاول وهو بعد شاب جاهل مغرور ان يقوم « بدور » الامبراطور ، فلم يكن يكف عن الثرثرة ، متظاهرا بأنه يعرف كل شىء ، مترفعا عن السؤال والاستشارة ! .. هذا بالاضافة الى العاهة الجثمانية التى كان مصابا بها (وهى شلل ذراعه اليسرى) ، والتى حاول اخفاءها كأنها أمر مخجل ، بدل أن يظهرها ويكسب عن طريق ذلك اعجاب الشعب بنشاطه النسبى ! وقد اضطر أخيرا الى الاعتراف بها فى مذكراته الخاصة التى نشرت على العالم . وكان هذا العاجز الاخرق هو الذى تولى

قيادة اعظم قوة حربية فى عصره ، وهو الذى ملا الدنيا تهديدا وصياحا وخطبا جوفاءسعيا وراء التصفيق له والتهليل ، فكان ذلك الجو الذى خلقه سببا فى توتر الاعصاب الذى انتهى بنشوب الحرب ! .. **الحرب التى حال بسمارك دونها عشرين عاما ، فاشعلها غليوم فى اقل الاوقات ملاءمة لها.. ثم سرعان ما ندم وحاول التراجع ، فلم يستطع !.. واذ ذاك مضى فيها يائسا ، شأنه شأن المريض الذى يسير الى غرفة العمليات وهو يائس من النجاة ! .. فلما ادركته الهزيمة فى النهاية طاوع طبيعته وهرب من البلد الذى كان فى امكانه ان يصونه سليما ويورثه لذريته، دون جهد كبير** ،وتدل تصريحات لبسمارك فى مجالسه الخاصة على انه كان يتوقع للقيصر هذا المصير . ولا شك ان من اوضح ظواهر الخلق الالمانى كره الشعب لبسمارك الجبار، وعبادته للقيصر المخبول .. الذى ظل ملايين من الالمان « يؤمنون » به حتى يوم وفاته فى منفاه سنة ١٩٤٠ !

نيتشه

(١٨٤٤ - ١٩٠٠)

◆ وهو أقل العباقرة الالمان « المانية » فقد كان مناهضا للالمان فى شعوره الى حد اضطره الى الفرار والاحتماء باقارب له بولنديين متخذا لنفسه اسم (بيتسكى) !

كانت دراسة نيتشة الرئيسية فى صباه قاصرة على اليونانية والايطالية والفرنسية ، وبقدر ما احب الثقافة اللاتينية والاغريقية طوال حياته ، بقدر ما كان يسخر من فلاسفة الالمان وشعرائهم ـ فيما عدا «جوته» الذى كان يجله ويقدره ، ولكن ليس باعتباره المانيا ! ـ ورغم أن نيتشه كان خصما لدودا للديمقراطية . الا أن من خطل الرأى أن يقال

انه «اب النازية» .. ورغم عدائه للديمقراطية فقد ظل بعيدا عن «قلب» الشعب الالمانى ، اذ كانت طرائق تفكيره وشعوره وكتابته لاتينية صرفة . وبلغ من شغفه بايطاليا انه كان يرى كل شيء فيها جميلا، عظيما ،عليه مسحة آلهية .. ونظرة واحدة الى جبهة نيتشة تذكر المرء بجبهة «مكيافيللى» و «ليوناردى» . **ويعزو علماء النفس تمجيده للقوة ولفكرة «البقاء للاصلح» والقضاء على الضعفاء والمرضى دون رحمة ، الى اعتلال صحته هو !** .. وكان الجو الوحيد الذى يناسب صحته هوجو البحر الابيض المتوسط او وديان الالب ، حيث كان يحلو له المشى على الشاطيء او تسلق الجبال ساعات طويلة . وهناك ـ كما قال مرة ـ واتته اعظم افكاره ، فكان يعود من رياضته ممتليء الرأس بها فيدخل غرفة مظلمة كى يسجل خواطره على ضوء مصباح بترول!

ورغم ان نيتشة مجد الحرب كمبدأ ، فقد انتقد الحرب الفرنسية البروسية بقسوة ٠ ولكن هذا لم يمنعه من التطوع لتمريض الجرحى من مواطنيه ، الذين كان يضن عليهم فى العادة بحبه الخالص ..

وقد كان فى نيتشة طموح « فاوست »الخالد ٠ **ويعزى تفوقه الفكرى الى حياة العزلة التى كان يحياها ، بعيدا عن النساء والاصدقاء !٠٠ كان مثله مثل العداء الذى لا يفتأ يسعى لابداء سرعته فى العدو الى اقصى حد ، فظل ارهاقه لخياله الكادح يرفعه الى آفاق متزايدة فى العلو ٠٠ حتى «انهار» عقله فجأة فاصيب بالجنون وهو فى سن تدور حول الاربعين !** ولما كانت أجرأ أفكاره ترجع الى ما قبل جنونه بعامين أو ثلاثة ، فقد سهل على خصومه أن يصفوها بأنها اعراض عقل مريض ! ٠٠ والواقع انه فى فترة «الذهول» تلك تسنم عقله ذرى لم يسبقه اليها انسان ، وجاد بعبارات مأثورة تشبه فى روعة صياغتها سلاسل الفضة !

فاجنــــر

(١٨١٣ – ١٨٨٣)

◆ **وهو** على العكس من نيتشة ذو خصال المانية صرفة . ويكاد المرء يسميه «أخطر» المانى عاش على الاطلاق! فهو يمثل عنصر الالمان الذين يجيدون الختل و «التمثيل» . وهو فى شغفه بالكذب صنو لخلفه المعجب به «هتلر» . ولاشك ان موهبته فى «التهريج» وانعدام ايمانه بأى معتقد او مبدأ ، كانا يؤهلانه لان يصبح زعيما للشعب الالمانى ، لو ان ثورة سنة ١٨٤٨ التى اشترك فيها كانت قد نجحت ورفعته الى مناصب الحكم ..

وفاجنر هو النموذج المثالى للنازيين ،فهو قد خلط مثلهم بين الاساطير الشعبيةوالاستعراضات الخلابة فى موسيقاه . وهو مثلهم يميل الى التأثير على الجماهير ، فتراه يقذف بابطال وبطلات «اوبراته» فى معمعة القتال الدموى الصاخب ! .. **وموسيقى فاجنر تمجد دين العنف والقوة ، وتدوس الحق تحت الاقدام !.. الاصدقاء فيها يروحون ضحية الخيانة ، والنساء ضحية الامتهان والمذلة . والاوبرا الوحيدة التى خلت من هذه الفلسفة البغيضة واينعت فيها عبقرية فاجنر هى أوبرا « تريستان وايزولد » ، ولذا فهى تعتبر آيته الفنية ..** ومن العجيب ان هناك شبها كبيرا بين قائمة جرائم النازى وبين جرائم ابطال فاجنر : ففى أوبرا « رينج» مثلا ترى بطلا يتيه بحظوته عند النساء ، فيعمد الى التخلص من غرمائه بلا وازع من ضمير ، مستخدما السم حينا ، والسيف حينا ، والخيانة والجبن والخداع بقية الاحيان !.. وهكذا افلح فاجنر فى ان يكون المعلم الاول لجيل من الاحداث مايزالون يستوحون خلقهم وتقاليدهم من هذه الامثلة البغيضة التى قدمهـــا لهم !

وكما كان لوثر وفردريك ، كانت طبيعة فاجنر بعيدة عن التوافق .. ولعل هذا جعل الثلاثة سواء فى الحظوة بتقدير الالمان ، اكثر من جوته نفسه !

وفاجنر هو اول فنان اثار فى الالمان التكالب على السيطرة على العالم ، وقدم لهم اساطيرهم القديمة التى كانوا يجهلونها فى ثوب قشيب براق . وقد اعترف هتلر بانه تشبع من روح فاجنر وابطاله ، الى حد انه اعتبره مصدر وحيه ! وفى احدى اوبرات فاجنر ترى خاتما سحريا يعطى من يحوزه زمام حكم العالم .. والاوبرا مليئة بمشاهد الخيانة والغدر والحنث فى العهود بين الاصدقاء والعشاق والاطفال والاباء والخدم والاسياد .. وهى تنتهى بانتصار هذه الرذائل .. فلا لوم على النازيين اذا كانوا قد حقنوا شعبهم بتعاليم فاجنر هذه ، وحققوا اساطيره واحلامه !

هندنبرج

◆ فى سنة ١٨٠٦ سلمت اكثر القلاع البروسية لجيوش نابليون قبل ان تهاجم !.. فكتب الامبراطور يقول : ان القلاع الروسية تؤخذ بسهولة بوساطة الفرسان وكان عدد القواد الالمان الذين سلموا لنابليون على هذه الصورة لا يقل عن ١٤ ، اكثرهم من النبلاء ، فلم يحاكم منهم بتهمة الخيانة سوى واحد حكم عليه بالاعدام ــ وان كان قد صدر عفو عنه فيما بعد ــ هو الجنرال فون بنكندورف هندنبرج ، عم الماريشال هندنبرج المعروف ، الذى تخلى عن المقطع الاول من اسم عمه، تنصلا من عاره !.. وهكذا خانت اسرة واحدة المانيا مرتين : الاولى حين سلم احد افرادها للعدو بغير قتال .. والثانية حين كرر الاخر الخيانة ، فى صورة اخرى ، بعد نحو قرن !

ففى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩١٨ كان مصير المانيا فى ايدى رجال ثلاثة : القيصر ، وهندنبرج ، ولودندورف . وكانت مشكلة الساعة هى الاختيار بين الانسحاب الى ارض المانيا ومواصلة القتال حتى النهاية ، او عدم الانسحاب !.. فقرر الثلاثة فى ذلك اليوم تأليف حكومة جديدة تعرض الهدنة على الحلفاء خلال ٢٤ ساعة.. بينما كان واجب كل قائد شجاع فى الظروف المماثلة ان يفضل لنفسه الموت على العار !

وكان القيصر فى تلك الساعة منعدم الارادة ، اما لودندورف فقد استقال ، وهكذا تركز الاختيار فى يد الماريشال العجوز.. فلم يتردد فى التسليم ، ثم البقاء فى المانيا ، بينما فر الآخران ! .. وكان عجيبا بعد ذلك ان يغدو هندنبرج فى نظر الشعب بطلا وطنيا ، وان يتسلم مقاليد الجمهورية بعد ست سنوات .. وهو الذى اعترف بجهله التام بالسياسة ، وبانه لم يقرأ فى حياته كتابا فى غير الشئون العسكرية !

ولكن تلك الخيانة لم تكن الوحيدة فى حياة هندنبرج ، فقد تبعتها خيانات اخرى .. وكما اقسم يمين الولاء للعلم الامبراطورى ثم خانه .. اقسم يمين الولاء للعلم الجمهورى ثم خانه ، حين اقسم للمرة الثالثة يمين الولاء للعلم النازى ! وبقدر ما كان يكره ويحتقر «الاومباشى البوهيمى» ـ كما سمى هتلر ـ بقدر ما رضخ لارادة الشعب حين أعطى الاغلبية لهتلر فنصبه مستشارا للريخ . وصار كل عمله هو ان «يبصم» القوانين التى يضعها هتلر ، وينفذ قراراته ، ومنها «حمام الدم» او مذبحة ٣٠ يونيو سنة ١٩٣٤ ، التى اعطاها هندنبورج التبرير القانونى . ولم تمض شهور حتى مات الرئيس الصورى للدولة الالمانية بعد ان نقل زمام السلطة الفعلى الى .. هتلر !

هتلــر

(١٨٨٩ - ١٩٤٥)

◆ **يرجع** نجاحه فى كسب عواطـف الالمان الى صفتين مختلفتين ، لم تتوفر ايهما فى اسلافه من حكام المانيا : اولاهما انه كان اول رجل من «عامة الشعب» يتولى زمام السلطة منذ عهد «لوثر» .. والثانية انه اول خطيب سياسى ظهر فى المانيا منذ نشأتها ، فان غليوم لم يكن يخاطب الشعب الا فيما ندر ، وبسمارك لم يخطب فى الالمان قط ! .. أما احزاب الاحرار والاشتراكيين فبرغم انهاكانت تضم عددا لا بأس به من الخطباء فان أحدا منهم لم يبلغ من المقدرة الخطابية ما يثير حماسة الجماهير ..

اما هتلر فكانت موهبته فى الخطابة هى السلم الذى تسنم عليه ذروة المجد ، وما كان لينجح نجاحه الكامل بغير الراديو، وبغير دأبه على صقل صوته واشاراته ، مستغلا فى ذلك موهبته التمثيلية الطبيعية ، ومترسما نماذج ابطال ومطربى اوبرات فاجنر ! ومما يؤيد الظن بان قدرة هتلر على اثارة الجماهير واقناعهم ترجع الى كفاءته الخطابية والمسرحية ، ان خطبه تفقد تأثيرها حين تقرأ ولا تسمع . وهو فى هذا على العكس من بسمارك الذى كان خطيبا ضعيفا ، ولكن خطبه «المطبوعة» كانت تمتاز بقوة الفكرة والقدرة على احداث التأثير المطلوب ..

وليس من الانصاف ان يجحد احد اخلاص هتلر حين يخطب ، وتأثره الصادق مما يقول ، فانه - على العكس من موسولينى الذى كان يكن لشعبه الاحتقار والسخرية - كان مؤمنا ايمانا عميقا بتفوق شعبه الالمانى . ولكن لو قورنت خطب هتلر بخطب جلادستون او جيفرسون او لنكولن ، لظهرت

الاولى خالية من الابتكار والتجديد والاقتباس من التاريخ والطبيعة والحياة ، فهى لا تعتمد الا على التكرار الدائم والاصرار العنيد ..

وفى خطابة هتلر تأرجح مستمر بين الصياح العالى والهمس الخفيض ، ينم عن احلام يقظته التى تنصب على الانتقام والتدمير ، اللذين يميزان شخصيته .. ومن العجيب ان يقارن البعض زعيما كهتلر قضى على هيبة القانون ، بنابليون الذى امر بتشكيل لجنتين لسن مجموعة قانونية شاملة ، فى ذات الليلة التى كان يتأهب فيها لاحداث انقلابه المعروف

وليس من العسير تفسير نزعة الانتقام عند هتلر ، اذا حللناها على ضوء الاذلال الذى قاساه فى شبابه .. فقد كره النمسا لان مواطنيه النمسويين لم يعترفوا بمواهبه فيوفروا له فى حياته المنكرة رزقا .. وكره الاجناس المختلطة لانه هو نفسه ينحدر من اصل مختلط .. وصب جام غضبه على الفن المعاصر لان اكاديمية الفن النمسوية قد خذلت انتاجه الفنى فى يفاعته فلم يجد منها تشجيعا !.. ولانه نشأ جاهلا بفن الاستمتاع بالحياة فقد جعل همه مناوأة الفرنسيين ، الذين يتقنون ذلك الفن ! ولانه شب خجولا يرتبك فى حضرة النساء ، لم يشأ ان يدع لهن فى مناصب دولته نصيبا بل رأى «نفيهن» من الحياة العامة نفيا تاما ! .. اما اضطهاده للعلم والعلماء فتفسيره الوحيد انه هو نفسه لم ينل من التعليم حظا كافيا وبالاختصار فهو قد شب يكره الانسانية ، والجمال ، والطبيعة ، ولا يحب الا القوة .. لانه كان محروما من تلك ، فراح ينشد هذه كى ينتقم لنفسه ، ولحرمانه !

ولكن هتلر اعطى الالمان اكثر من مجرد «خطب جوفاء» !.. اعطاهم ما طالما حرموه فى ايام الجمهورية البغيضة الى نفوسهم: اعطاهم ثيابا عسكرية ، واعلاما ، واحذية طويلة ، واستعراضات ،

ونياشين وموسيقى حربية .. وفوق كل ذلك فقد اعاد هيبة النفوذ أو السطوة التى يفضلها الالمان على المسؤولية .. فوجدوا فيه بعد السنوات القاتمة السوداء ، الرجل القريب الى قلوبهم ، الذى يخلصهم من حيرة تكوين رأى لاختيار ساستهم والتصويت لنفر منهم ضد نفر اخر .. فقد تولى هتلر عنهم هذه المهام جميعا ، مهام التفكير والتصويت معا !

وفى اول مايو سنة ١٩٣٣ اذاع الراديو الالمانى خطابا لهتلر كان يلقيه امام جمهور مكون من عدة الوف ، فلم يكد هتلر يصيح بلفظ «الطاعة» ويكرره مرتين حتى اكتسحت الجماهير موجة من الحماسة الصادقة . فالالمان يهللون للطاعة كما تهلل الشعوب الاخرى للحرية !ـ وهكذا عرف زعيمهم كيف يجد « المفتاح » لقلوبهم !.. ثم سرعان ما خلقت الدعاية حوله أسطورة كبرى ما فتئت تتضخم وتتضخم حتى كادت تؤلهه ! ففى البداية قيل انه لا يتناول من الدولة مرتبا ، ثم قيل انه قد ضحى بكل امل فى الزواج والحياة العائلية ، فى سبيل التفرغ لخدمة شعبه .. ثم قيل انه يحافظ على سلامة تفكيره وتدبيره بالامتناع عن الخمر والتدخين والنساء !.. فلم تمض على تقلده منصبه شهور حتى جعل الالمان ينظرون اليه كقديس . ولكن اكثر ما أثر فيهم واكسبه احترامهم مذبحة ٣٠ يونيو سنة ١٩٣٤ التى قتل فيها الفا ومائة من اتباعه !

واحب الالمان «السيد» الجديد ، الذى لا يعتمد على الاقناع او التملق ، بقدر ما يعتمد على التهديد والاكاذيب . فان طبيعة الخوف المسيطرة على هتلر الفرد ، جعلته يؤمن بفائدة التخويف الصادر من هتلر الزعيم ! على أن الذى خلب لب الالمان فى هتلر لم يكن قسوته ذاتها ، بل تبريره الخلقى لتلك القسوة وزعمه أن الباعث عليها هو نقص اعتراف العالم بمكانة المانيا الحقيقية واحتقار شعوبه جمعاء للشعب الالمانى .. الاحتقار الوهمى

الذى حفز الالمان على التربص «باعدائهم» وعقد النية على تحطيمهم والاقتصاص منهم ، فكان هذا الخلاف التقليدى بين الاعتداد بالكرامة وبين الغرور ، هو «الاساس» النفسانى لجميع الآثام التى لجأاليها الشعب تنفيسا عن غله . والواقع ان اتباع هتلر كانوا يزدادون ويتضاعفون كلما ازداد هو صراحة فى تهديد اعداء بلاده وتسليح جيشه !.. حتى انتهى به الامر الى أن اعطى الالمان مطلبهم الوطنى الاسمى : الخدمة العسكرية . فلذ لرجل الشارع ان يرى قواد الجيش القدماء يتلقون الاوامر من هذا «الرجل العادى» .. واساتذة الجامعات وكبار رجال الاعمال يؤيدون سياسته !.. وفات رجل الشارع ان تأييد رجال الاعمال لهتلر كان مبعثه النفع الذاتى الذى يجنونه من صنع الاسلحة ورفع الاجور ! فلم يكن غريبا بعد ذلك التأييد الاجماعى لصاحب فكرة تفوق الجنس الالمانى ، ان يؤمن الشعب بصواب تلك الفكرة وشرعيتها ، وان تعجز الشبيبة الالمانية عن مقاومة اغرائها !

يضاف الى هذا من الناحية الاخرى ان الطوائف التى اختصها هتلر باضطهاده كانت على الدوام بعيدة عن ان تحظى باحترام الجماهير : فاضطهاد اليهود والشيوعيين كان يتمشى مع ميول الالمان وتقاليدهم ، كما كفل برنامج التسلح عملا لجميع المتعطلين .. وفوق هذا وذاك اعاد هتلر الى الالمان ثقتهم بانفسهم ، التى زعموا انهم فقدوها فى فرساى سنة ١٩١٩ ، وان كان الواقع انها لم تكن لهم يوما من الايام ! وهنا تبدو للباحث حقيقة ذات اهمية لا تنكر ، هى ان معاهدة فرساى التى اتخذ هتلر من محاربتها سلاحا لتقوية دعوته ، لم تكن حين تولى السلطة فى سنة ١٩٣٣ اكثر من حبر على ورق .. فان اركانها الثلاثية ، وهى التعويضات ونزع السلاح والاحتلال ، كانت قد صرف النظر عن تنفيذها عملا .. ولكن مجرد اثارة

النفوس ضد «الظلم» سمم افكار الالمان واشعل حماستهم .. وهكذا قبل هذا الشعب المحارب ان يخوض غمار الحرب العالمية الثانية بنفس الاندفاع والثقة اللذين قبل بهما حرب غليوم !.. ولم يدرك غير القليلين أن زمن السيطرة على العالم قد مضى ، وان الدول الكبرى كلها لن تجد مفرا من التضامن معا لدفع هذا الخطر « التيوتونى » الجديد ، واعادة الامن الى ربوع الكون ..

.. وقد كان !

عزيزى القارىء ...

فى هذا الباب قدمت لك فى الاعداد الماضية من كتابى ، الكتب الاتية على التوالى : «كيف تصارح أولادك وبناتك بالحقائق الجنسية » للعالم النفسانى ماكدونالد لاديل ، ثم «طريق السعادة الزوجية» لفردريك برينك ، و «مركب النقص» تاليف و. ماكبرايد، و «حواء الجديدة» - مرشد المرأة العصرية المستنيرة الى سعادتها ، قبل الزواج وبعده - للدكتور كورتنى بيل، ثم « كيف تقهر الخجل » تاليف س. تيار ، و «كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة » لجون كنيدى ..

ثم قدمت لك فى الاعداد التسعة التالية ، من فنون الحياة التى شرحها المفكر العالمى «اندريه موروا » : فن الحب فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن السعادة ، فن التفكير ، واخيرا فن الاستمتاع بالشيخوخة ..

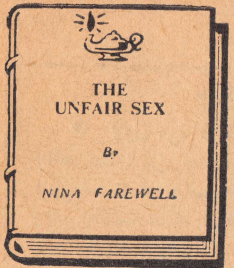
ثم انتقلت بك منذ العدد (١٦) من صحبة اندريه موروا الممتعة الى صحبة مفكر عالمى آخر هوالفيلسوف الانجليزى المعاصر « برتراند رسل » فى كتابه المشهور « غزو السعادة »

وبعده قدمت لك كتاب فرويد المشهور « التحليل النفسى » ، ثم الكتاب العملى» الشائق : «كيف تضاعف من نجاحك فى الحياة » .. واليوم أقدم لك فيما يلى ، لاول مرة ، كتابا عن المشكلة الجنسية كتبته امرأة !

حوافز الحياة

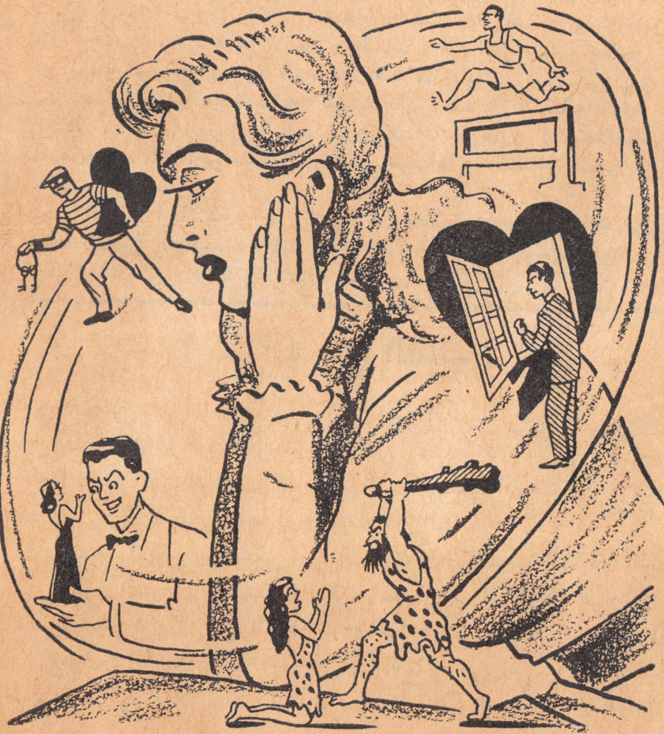


النفس والجنس .. والمجتمع ..



الجنس الآخر!

للكاتبة نينا فيرويل
الأخصائية في التربية الاجتماعية وعلم النفس



حملة على الجنس « غير » اللطيف !

◆ لاول مرة فيما أذكر يتعرض الجنس الخشن لمثل هـذه الحملة «الصريحة» من جانب الجنس اللطيف على صفحات هذا الكتـاب الطريف الذى وضعته الكاتبة والاخصائية «الجريئة» نينا فيرويل ، وقد اطلقت عليه عنوان The Unfair Sex وهو عنوان يحتمـل عدة معان ، منها : الجنس غير اللطيف (الجنس الخشن) ، او الجنس غير المنصف (الجنس الظالم) ، او الجنس غير الجميل (اى القبيـح الخلقة) ـ ولعل المؤلفة قد قصدت الى هذه المعانى جميعا حين اختارت عنوان كتابها ! ـ وهى تقول فى مقدمة الكتاب انها وضعته كى ترشد بنات جنسها ، من جميع الاعمار والطبقات ، الى الطرق التى تمكنهن من كسب «معركة الجنس» التى تدور منذ الازل بينهن وبين الرجال ! .. فهدف الكتاب هو «تسليح» النساء باكبر عدد من النصائح العملية لاحباط «كيد» الرجال و «خداعهم» لبنات حواء و «استغلالهم» لضعفهن .. الى اخر قائمة التهم التى ستقرأها فى (صحائف الدعوى) التاليـة !

فطالعها أيها القارىء ـ والقارئة ـ بامعان ، وارسـل رأيك فى هذه القضية الهامة الى «كتابى» ، وسوف ننشر احسن الـردود والتعليقات التى تصلنا فى الاعداد التالية ..

١ ـ الجنس الظالم !

◆ **تنطلق** المرأة الشابة العادية فى الدنيا وهى غير مجهزة بما يمكنها من مواجهة غريمها الرجل الا بعتاد ضئيل ، فكثيرا ما تجد نفسها فى مواقف تحار فيها فيما ينبغى أن تقول ، وكيف تتصرف ، وماذا يجوز لها أن تتوقع من الرجل !

ويبتسم الناس فى غير اكتراث لتلك الالاعيب الغزلية التى يعمد اليها الشبان والشابات فى السنوات السابقة للزواج ، زاعمين أنها بريئة كل البراءة ، وانها محض مرح .. والواقع أن الرجال والنساء لا يكفون فى أية ساعة من سـاعات الليل والنهار ، وفى كافة أرجاء العالم ، عن البحث بعضهم عن بعض ،

فى شوق الى أن يجتمعوا وأن ينشئوا العلاقات معا ٠٠ على أنه يخلق بالمرء أن يلاحظ ـ للاسف ـ أن ثمة فارقا مهما ، لا يبدو لاول وهلة ، بين أهداف الفريقين من سعيهما الى بعضهما البعض **٠٠ ذلك أن كل جنس يسعى الى هدف يختلف تمام الاختلاف عن هدف الجنس الآخر !٠٠ فالانثى تتوق الى عقد الصداقة مع الرجال لغرضين : أولهما الحصول على زوج ٠٠ وثانيهما التسلية ، فالواقع أنه لا سبيل الى البهجة فى الحياة بدون رفيق من الذكور ٠٠**

أما الرجال فانهم لا يسعون لرفقة الاناث لغرض الزواج ، أو لمجرد الاستمتاع بمجاذبتهن أطراف الحديث ، أو الاشتراك معهن فى الرقص أو النزهات الخلوية أو المسرات البريئة الاخرى ٠٠ بل انهم يبطنون ـ للاسف ـ فى أنفسهم غرضا آخر !!

وهكذا نجد عندنا فريقين تفصل بينهما أغراض متضاربة ، ومع ذلك فكل منهما مسوق نحو الآخر تحت ضغط دافع قاهر ٠ ومن ثم فلا مناص من الصراع بينهما ٠٠ وهو صراع يزيد من انعدام التكافؤ فيه أن الذكر يستخدم ـ الى جانب ما أوتى من معرفة تفوق ما أوتيت الانثى ـ أساليب غير شريفة !

وليس هذا بالاتهام الجزاف ، وانما هو تقرير أمر واقع ٠٠ وكتاب كهذا لا يتسع للموضوعات التى لا تزال محل جدل وتضارب فى الاراء ، ولذلك حذفت منه كل ذكر لـ ٠٠ «الحب» ! ٠٠ فان مجرد تعريفه لا يزال مجال خلاف ، ولم تتفق الاراء بصدده فى اجماع الا بصدد نقطة واحدة هى أن : الفتاة التى تقع فى الحب ، أو تظن أنها تحب ، تكون بعيدة عن صوت العقل ٠ لذلك فان التى تحرص مخلصة على خيرها يجب أن تتجنب هذا « الشذوذ العاطفى » تجنبها الوباء الاسود ٠٠ الطاعون !

واذا بدا فى بعض الاقوال التى يتضمنها هذا الكتاب شىء

من البعد عن المنطق ، أو بدا أحد الفصول مناقضا للآخر ، فاذكروا أن المؤلفة تنتمى الى ذلك الجنس الذى اشتهر بتهوره وتقلبه .. ثم ان الحياة ذاتها مليئة بالنقائض !

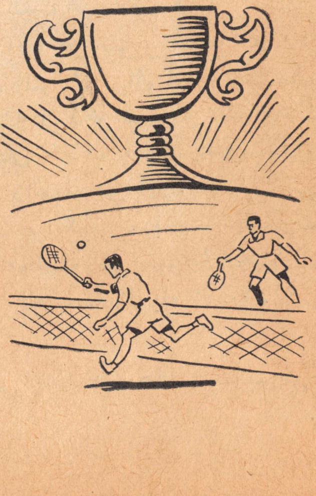
سر رغبة الرجل فى الحصول عى ما يشتهى

◆ **والآن** دعونا نتساءل :

ما الذى يدعو أحد أفراد المجتمع الى الكذب ، والمكر ، والغش ، والمخاتلة ، فى سبيل الحصول على ثقة امرأة ما ، فى حين أنه عرف بالاستقامة فيما عدا ذلك ؟.. ما الذى يدفع أى رجل الى ذلك ؟

اننى فيما يلى أسرد ملاذ الرجل الست عشرة ، مرتبة حسب اهميتها ، دون ان احاول التلطيف من الحقائق التى قد تصدم اعتداد الانثى بنفسها :

١ **ـ لذة التملك :** فالرجل يحتاج الى ما يبعثه التملك فى النفس من راحة ورضى .. وأمره ازاء المرأة كامرأة ازاء سيارته ، فهى قد لا تكون عين الطراز الذى يفضل ، ولكنها تحمله أينما شاء أن يذهب .. وهو من هذه الناحية يستشعر زهوا و « فخفخة » اذا امتلك اثنتين أو ثلاثا !



٢ **ـ لذة الثأر** : فهو يشعر انه خاضعا لسلطان المرأة ـ أمه ـ فى طفولته ، ثم أصبح بعد الزواج خاضعا لمقتضيات ارضاء زوجته ، ولذلك ينتهز الفرصة لاذلال المرأة فى زوجته بالوسائل الوحيدة التى تسنح له ..

٣ ـ **لذة الفوز** : اذ أن الرجل يشعر بغبطة فى التفوق على غريمه ، سواء فى « الطاولة » أو « الدومينو » أو « التنس » أو فى أى مجال ٠٠ وهو يجهد اللعب ليفوز بالمكافأة او الكأس .. وكذلك الامر ازاء المرأة .. فهو ينازل مزاحميه لا ليفوز بها كامرأة ، وانما .. ككأس !

٤ ـ **لذة التحقق والتأكد** :كثير من الرجال يشعرون ـ فى هذا العالم المليء بالشكوك والاضطرابات ـ بحاجة الى ان يثبت الواحد منهم لنفسه باستمرار انه رجل بحق ٠٠

٥ ـ **لذة التفاخر والزهو** : بمعنى أن قسطا كبيرا من ارتياح الرجل ورضاه ، يتأتى من التحدث الى سواه من الرجال عن انتصاراته على المرأة ٠٠ واستمراء الاعجاب الذى يستدره بهذه الوسيلة

٦ ـ **لذة تخطى الحدود** : ان تناقض طبيعة الرجل يدفعه الى مخالفة النواهى وتخطى الحواجز واقتحام الابواب المغلقة ٠٠

٧ ـ **لذة مجاراة الناس** : فليس بين الرجال من يحب أن يكون بينه وبين سواه فارق ، فهو يطارد النساء لان هذا من دلائل الرجولة ٠٠ ولان سواه يفعل ذلك !

٨ ـ **لذة الشعور بالذات** : ان الحصول على امرأة مشتهاة يذكى من شعور الرجل بالاعتداد ، ويرضى زهوه ٠٠ تماما كما يحدث للطالب اذا فاز بالاولوية فى فصله ، أو للشاب اذا ظفر بعضوية منتدى راق ٠٠

٩ ـ **لذة السرقة** : ففى الاقدام على سرقة امرأة من صديق أو عدو ، متعة خاصة ، ضافية ٠٠ اذ أن فى هذا ارضاء لشعور بدائى منشأه الشعور بالقوة العضلية ٠٠

١٠ ـ **لذة الطبيعة** : وتتمثل فى الغبطة الساذجة التى تتأتى عن ارضاء مطالب الفطرة والطبيعة ٠٠

١١ ـ **لذة الحصول على شيء مقابل لا شيء** : فليس من رجل ـ مسرفا كان أو بخيلا ـ يستطيع أن يقاوم متعة الحصول على شيء دون مقابل ٠٠

١٢ ـ **لذة الاستعاضة** : اذ أن الرجل المحروم من النجاح فى بعض النواحى ، يجد فى قهر النساء عزاء وراحة

١٣ ـ **لذة الهرب** : ان الرجل يجد فى المـرأة أشهى مخدر ناعم .. فبين ذراعيها يستطيع أن ينسى كل متاعبه وأحزانه

١٤ ـ **لذة الكشف** : ففى فض الغلافات والاربطة لكشف ما فى أطواء اللفافات متعة سارة .. وتبدو كل لفة جديدة وكأنها تخفى مفاجأة غير مرتقبة ..

١٥ ـ **لذة التدمير** : ان الفتاة المتعجرفة ، أو المنيعة ، قد تملأ نفس الذكر برغبة ـ لا يدرى لها مبررا ـ فى أن يهوى بها الى الارض ، ويمرغها فى الرغام ، فيشوه حسنها وزينتها

١٦ ـ **لذة الممارسة** : فان أية موهبة ـ سواء كانت غريزية أو مكتسبة ـ تملأ الرجل زهوا ورغبة فى أن يمارس مهارته فيها ..

تحامل الرجال على النساء

◆ **ويعرف** الرجال تماما ان مسلكهم بغيض ، مستهجن ، ولكنهم ـ فى سبيل تبريره ـ يلجأون الى عدد من الاتهامات يوجهونها جزافا الى النساء .. فهم يزعمون مثلا :

(ا) **ان النساء ماكرات** .. فهن يبذلن الود والاعجـاب والحنان كطعم لاستدراج الرجال الى الزواج برغم ارادتهم !

(ب) **وان النساء غير مخلصات** .. فهن يتظاهرن بحب الرجل لمجرد ذاته ، فى حين أنهن لا يأبهن فى الواقع الا لما يستطيع أن يوفره لهن من رفاهية ومتع ..

(ح) **وان النساء أنانيات مخادعات** .. فهـن يسعين الى اصطياد الرجال لمجرد ارضاء غرورهن ، والظهور بالمظهر الذى يغيظ غيرهن من النساء ..

ومن ثم يعمد الرجل ـ وهـذه الآراء فى نفسه ـ الى تدبير الوسائل الهجومية والدفاعية :

ضد الزواج : اذ لا يكاد الذكر يبلغ سن المراهقـة ، حتى

يعتقد أن كل النساء يسعين لاصطياده ٠٠ فاذا ابتسمت له امراة ـ مهما كان جمالها او ذكاؤها او ثراؤها ، او كانت فى الواقع أفضل منه فى جميع الاعتبارات ـ فانه سرعان ما يخالها راغبة فى الزواج منه !

والحق أن الرجل أبرع الوحوش ، فهو نادرا ما يقع فى الشباك ، ما لم يكن راغبا فى ذلك ٠٠ ومن حسن الحظ أن فى حياة كل رجل لحظة يرى فيها ان محاسن الزواج تفوق كل لذات الحرية ، واذ ذاك ٠٠ « يستسلم للاسر » ٠٠ بيد ان الخوف من أن يقع فى أحابيل امرأة لعوب يجعله يقابل كل فتاة يلتقى بها وهو يقول لنفسه : « لسوف تصيدنى اذا لم اسبق الى صيدها ! »

والذى أدعو كل امرأة الى أن تلاحظه ـ فى هذا المجال ـ هو أن الرجل ليس مستهترا ، ولا حقودا ، وانما هو يحرص دائما على أن يلزم جانب الحذر ٠٠ فهو ـ مهما بدا حاذقا ، أو غبيا ـ يكون على حذر دائما :

ضد الاستغلال : فهو ينحو الى التسلية بأزهد النفقات ٠ بل ان هناك طرازا ـ قلة فى العدد لحسن الحظ ـ يجعل ديدنه أن لا ينفق شيئا على الاطلاق ٠٠ وكأن شعاره : « احتفظ بما حصلت عليه ، وخذ ما تستطيع الوصول اليه ، ولا تكف عن طلب المزيد ! » ٠٠ اما الرجل العادى فيشبه التاجر المساوم ، يحاول ان يحصل على اقصى ما يستطيع فى مقابل اضأل قدر من الوقت والمال ٠٠ ومن ثم فهو يقتر فيما يمنح من أسباب اللهو ، ولا يكف عن أن يقيس ما أنفق منها بما أحرز من تقدم نحو هدفه ٠٠ لالبخل أو حرص ، وانما لانه عقد العزم على أن لا يسمح لامرأة أن « تستغله » !

هل يستغنى الرجل عن المرأة ؟

◆ ومن عادة الرجل أن يكون على حذر أيضا :

ضد أن يكون ذيلا للمرأة : فالرجال يستمرئون أن يوحوا الى

أنفسهم بالاعتقاد بأن النساء لا يستطعن الحياة بدونهم ٠٠ وهم على حق ، فان للرجل أهمية كبرى لدى المرأة : فمثلا هنـــاك أماكن لا تستطيع المرأة أن ترتادها ـ سواء بحكم القانون أو بحكم العرف الاجتماعى ـ الا فى صحبة الرجل ، كالمشارب ، والمنتديات الليلية ٠٠ **وحتى فى المناسبات العادية لا تجد المرأة رواء يفوق ذلك الذى يضفيه عليها الظهور بصحبة رجل وجيه ! ٠٠ وثمة ناحية أخرى ، هى ناحية الزهو والكرامة ٠٠ فالمرأة التى تظهر فى المجتمعات دون صحبة الرجال تفقد اعتبـارها سواء لدى الرجال ولدى النساء !٠٠ بل ولدى أسرتها ذاتها ، وهذا أنكى ما فى الامر ٠٠**

ولحسن الحظ أن الانوثة أوتيت بفطرتها « قوة » يدعمهـــا « دهاء » مستتر ، الامر الذى يمكن نسبة لا بأس بها من النساء من أن يصمدن لخطر اعراض الرجال عن صحبتهن ، وأن يقابلنه بالتحدى ٠٠ ولولا ذلك لكانت الاناث جميعا تحت رحمة أهواء الرجال ونزواتهم على طول الخط ٠٠ ولما رأى الرجال ضرورة تدعوهم الى الاستسلام للزواج ٠٠

وبدون الزواج ٠٠ لا يكون ثمة طلاق !٠٠ ولا نفقة !

وأنا شخصيا أشعر أن أقصى أمانى كامرأة ، أن يتحد جنسنا يوما فنكون وحدة منيعة ـ لا سبيل الى اشاعة الفرقة فيها ـ ضد كل الذكور ، بحيث نضطرهم الى العدول عن تصرفاتهم غير العادلة ٠٠ وحتى يحين ذلك اليوم ، يجب على كل منـــا أن تستبسل فى الكفاح فى معاركها الخاصة ، مسترشدة بفهـم واستغلال اللذات الست عشرة التى توحى للرجل بكل تصرفاته ازاء جنسنا !

كيف تستدرجين الرجل الى النزال !

◆ **من** الجلى أن النساء فى حاجة الى خطة محكمة للدفاع ٠٠ وهنا لا تصح النظرية القائلة بان خير دفاع هو الهجوم القوى ، بل ان النصر المؤزر ـ أى الزواج ـ يتأتى عن طريق اغراء الرجل

بالعدوان ثم مقابلته بالمقاومة السلبية ! .. فما هى الخصـــال الانثوية التى تستثير النوايا العدوانية لدى الرجال ؟٠٠ انها :

التواضع : ذلك لانه من الخيـر أن تحققى التوازن بين ما أوتيت من مواهب وبراعة وبين ما تظهرينه للرجل فعلا ٠٠ فلا تزدهى بما تصلين اليه من فوز ، بل تظاهرى طيلة الوقت بأنك أقل ذكاء وحضور بديهة ونجاحا وبراعة فى اللعب ، من أى رجل تريدين اخضاعه لتأثيرك !

تواضعى فى مسلكك : فلا تحاولى أن تكونى أكثر منه كلاما ، أو أكلا ، أو أناقة ٠٠

تواضعى فى مظهرك : فليست العبرة بمدى ما لديك ممـــا تستطيعين أن تظهرى به ، وانما العبرة في أن تعـرفى كيف تظهرين ما لديك .. **فلا ترتدى ثيابا قصيرة ما لم تكن ساقاك جميلتين ٠٠ وتفادى الثياب المفتوحة الصدر ما لم يكن نحرك بديعا !**٠٠ وبالاختصار ، استرى كل مواطن النقص ولا تظهرى سوى كل ما يعز انتقاده !

الطيبة : فلا بد للمرأة التى تريد استثارة الرجل من أن تكون طيبة ، وذات عبير طيب !٠٠ والرجال يحبون نوعين من العبير : رائحة الطعام ، ورائحة العطور ٠٠

كذلك ينبغى أن تكونى طيبـــة فى كل ما تفعلين ، على أن لا تسرفى فى الطيبة ٠٠ فلا تقدمى على شىء لست كفؤا له ٠٠ لا تقدمى على السباحة ، أو لعب التنس ، أو الرقص ، أو الاكل ، أو الطهى ، أو الحب ، ما لم يكن فى وسعك أن تؤديه فى خفة ، وبهاء ، وحماسة .. !

الحنان : لحنان المرأة سحر ينفذ الى قلب الرجل فيكون له اغراء لا يمكن أن يخيب ٠٠ فهو يستثير كل ما فى الرجل من رجولة ٠٠ اذ أن الرجـــل يحب دائما أن يربت ، ويقبل ، ويتحسس ، ويقرص ، ويعض ، ويقسو على كل ما هو ناعم ، لدن .. فتجنبى قوة العضلات .. وكونى دائما رقيقة ، طرية ، حنـــونا !

السخاء : كونى كريمة فى اضفاء المنح الصغيرة ، فليس بوسعك أن تستثيرى الرجل ما لم تقدمى له عينة أو مثالا يشعره بما فى تقبيلك وعناقك من حلاوة !.. وكيف يشعر بما يفتقد ما لم يتذوق القليل منه ؟

التبرج : الحشيات والزوائد الهفهافة ، و « التل » و « الدانتيل » ، والجواهر ، والاصباغ ، والزهور التى تزين الشعر .. كل هذه قد تبدو لك أشياء تتطلب نفقات وتسبب مضايقات ، لا داعى لها .. ولكنها حبيبة الى قلوب الذكور .. فالجنس الانسانى وحده هو الذى يحرم العرف عنده على الذكر أن يتبرج، ومن ثم فهو يسعى الى اشباع حنينه للزينة بالاستمتاع بمشاهدة زينة الاناث .. فاستخدمى أسباب الزينة بمهارة وبراعة ..

ويزعم الرجال أنهم يحبون النساء اللاتى يبدون بمظهر طبيعى ، ولكنهم في الواقع لا يحبون ذلك الا فى زوجاتهم فقط، حتى لا يسترعين انتباه غيرهم من الرجال !.. ومن السهل اجتذاب نظر الرجل بالاشياء ذات البريق والوميض ..

الفتنة : عدلى شخصيتك بحيث تلائم الرجل ، والمناسبة ، والظروف .. كونى نزقة ، او كثيرة الحركة ، او مراوغة ، او رشيقة .. أو صريحة .. أو أى شىء الا نفسك على حقيقتها !.. اذ أن شخصيتك الطبيعية ـ بلا « رتوش » ـ تكون باهتة ـ كملامحك بلا « تواليت » ـ ولكن ليكن الرتوش والتواليت فى الحالتين معتدلا .. خفيفا !

الغموض : لا تسمحى لرجل قط أن يعرف الكثير عنك .. فان حبه لشعرك يخبو اذا عرف أنك تصبغينه .. وافتتانه بابتسامتك يزداد اذا جهل ان اسنانك مكسوة بكساء صناعى.. ومن ثم فاحتفظى لنفسك دائما بسنك ، ووزنك ، والخلافات العائلية .. واخدعيه ، وحيريه ، واتركى له مايستثير خياله

حولك .. وحذار أن يحس بمتاعبك الصحية ، أو بحقيقة مشاعرك نحوه .. أو أن تفضى اليه بشىء عن ماضيك ، مهما كان فارغا !

الرقة : ان نفس الرجل ـ والعوامل التى تكون شخصيته ـ شىء رقيق ، فلا تخدشيه .. بل عامليه بالرقة والتفاهم الرقيق، وغذيه بالكلمات المعسولة والغزل ونفحات الاعجاب .. فاذا لم يكن له من الخلال والمواهب ما يستدعى الاعجاب ، فانسبى اليه ما ليس فيه ، وأنت مطمئنة الى أنه لن ينكر قط ماتنسبينه اليه منها !

واذكرى أن أهم وظائف عينى المرأة هى أن تنقلا الى الرجل تقديرها لتفوقه الذهنى أو البدنى ، أو لمواهبه وخصاله ..

استعدي للمقاومة قبل استثارة الهجوم !

◆ **على** أنك قبل أن تنمى فى نفسك الخصال التى أوردتها ، والتى تجعل الرجال يرغبون فيك ويشتهونك ، يجب أن تتأكدى من استعدادك ومقدرتك على التغلب على ما يثيره ذلك من متاعب .. فمما يؤسى له حقا أن القدرة على استثارة رغبة الرجال فى تملكك ، لا تكون عادة مصحوبة بالبراعة اللازمة فى كبح هذه الرغبة واستغلالها لصالحك .. والقلعة المكشوفة تكون دائما عرضة للهجمات المستمرة ، ولا مناص من أن ترضخ فى الغالب للغزاة .. ومن ثم فليس من الحكمة أن تستدرجى العدو على ان يصوب اليك من الطلقات اكثر مما تستطيعين ان تصمدى له وأنت آمنة .. ولذلك يحسن بكل أنثى أن تقرر أولا كيف تستغل ما أوتيت من مواهب فى استدراج القدر الذى يناسبها من الهجوم .. فاذا استدرجته وجب أن تعرف كيف تقاومه فى اعتداد وجلال ..

كيف تقاومين الرجل ؟

◆ **وليس** بين كل ألف امرأة سوى واحدة ـ فقط ـ يواتيها الحظ بتهافت عدد كبير من الرجال عليها ليطارحوها الغرام ..

أما التسعمائة والتسع والتسعون الاخريات ، فانهن أقل حظا من تلك المحظوظة ـ وان كن يتلقين ولا شك عددا من عروض الهوى ، مهما قل ، يتيح للواحدة منهن فرصة أن تلتقى برجل ترفض حبه .. وقاك الله شر ان تبلغى الحد الذى لاتجدين عنده حبا ترفضينه !

وخير أساليب المقاومة مفعولا ، هى تلك التى تقتبس عن النشاط اليومى العادى مثل :

الأكل : فكلما هم بأن يقبلك ، ادفعى الى فمك بشيء .. قطعة من الحلوى مثلا .. وكلما كانت لزجة ، مدرة للعاب ، كانت أقوى تأثيرا ..

الشراب : احرصى على أن تكون فى يدك كوب من الشراب ، ترفعينها الى شفتيك من آن الى آخر .. وتدفعينها نحوه فى رشاقة ، فيضطره هذا الى ان يمكث على مسافة منك .. حرصا على ثيابه !

التدخين : ان السيجارة اذا تعمدت أن تسيئى حملها ، سلاح رائع للدفاع .. فان اقل حرق او لذعة من نارها تجعل الرجل اقل جراة فى الاقدام على احتضانك ..



العمل : من وسائل الدفاع التى يبدو مفعولها على اشده حين يكون اللقاء فى بيتك ، ان تتشاغلى بالاعمال .. فكلما اوشك الرجل ان يتغلب على مقاومتك ، انهضى وادى عملا ما .. كونى حفية به ، رقيقة معه ، ولكن من المجاملة مثلا ان

تنظفى منفضة السجاير ـ ولو لم يكن فيها سوى عقب سيجارة واحد ـ او ان تجلبى له شرابا ، او ان تمشطى شعرك ..

الكلام : والكلام مفيد ، على أن لا تثرثرى دون رابط أو معنى، فان هذا كفيل بأن يحرضه على الفرار منك .. الى غير رجعة ! .. وانما اختارى من الموضوعات ما يستثير اهتمامه أو يروق له .. واذكرى أنه كلما انتهى الكلام الى صمت ، انفسحت الفرصة أمام الرجل كى يعاود الزحف والهجوم .. فامسكى بيديه فى رفق ، وتنهدى ، ثم سليه عن طفولته .. أو عن لقائكما الاول .. مثلا !

ولو كنت من البراعة بحيث تجيدين استخدام أسلحة المقاومة التى أوردتها معا ، لكان دفاعك أمنع دفاع .. واحرصى على أن تكونى رقيقة ، لطيفة ، وأنت تمارسينها .. وعلى أن يبدو عليك أنك لا تفطنين قط الى أنك تقصينه بتصرفك عن غايته .. فاذ ذاك لن يفطن بدوره الى ما تفعلين ، وانما سيلقى تبعة اخفاقه على سوء خططه .. وهو فى هذا لم يجانب الحقيقة، لان الرجل القادر فعلا لن تصده قطعة الحلوى التى فى فمك ، ولن يحفل بالشراب الذى فى يدك ، بل انه ينتزع السيجارة من فمك ، ولا يأبه لكلامك .. فى سبيل الفوز بقبلة !

٢ ـ المرأة عندما يهجرها الرجل !

◆ **لماذا** تتردد فى قلب المراة ، فى بعض مراحل حياتها ، صيحة الشكوى الملتاعة من فتور الرجل ، او هجرانه ؟ .. لقد لوحظ ان المراة ـ حتى لو كانت اكثر النساء فتنة واغراء ـ تمنى احيانا باختفاء الرجل الذى كان يبدو لها مغرقا فى التدله بها ، فاذا هو قد هجرها الى غير رجعة !

هناك نوعان من الرجل الذى يختفى من حياة المراة : النوع الاول هو الذى يلتقط المراة ، ثم يلقيها جانبا .. والنوع

الثانى هو الذى يسجل عنده رقم تليفونها واعدا بان يتصل بها ، ثم لا يبر بوعده .. فما السبب ؟ .. وماذا تستطيع المراة ان تفعل لتحول دون خيبة الامل التى من هذا النوع ؟

اذا اردت يا سيدتى البحث عن السبب ، سلى نفسك فى هذه الحالة عما اذا كنت ارتكبت ايا من هذه الاخطاء :

ــ **هل** اسرفت فى الكلام ؟

ــ **هل** تحدثت الى الرجل عن .. الزواج ؟

ــ **هل** حملته على ان ينفق بتبذير اثناء مصاحبتك له ؟

ــ **هل** جعلته « يشعر بالنقص » فى ناحية من النواحى ؟

ــ **هل** استخفك الزهو والغرور فلمس فيك هذه النقيصة ؟

ــ **هل** كنت تقهقهين بصوت مرتفع ، او تحدثين صوتا وانت تمضغين اى شىء ؟

ــ **هل** تقبلت معرفته ومصاحبته فى لهفة و .. خفة ؟

ــ **هل** رفضت طلبا له فى مناسبة ما ، بلهجة حاسمة ، باترة ؟

على ان اخفاقك فى الاحتفاظ بالرجل او اجتذابه قد لا يعود احيانا الى ذنب من ناحيتك ، او عيب فى مظهرك او شخصيتك او مسلكك .. او الى انك لم تنساقى لرغبات صاحبك .. وانما هو قد يترتب على ظروف خارجة عن ارادتك ! .. واهم حقيقة ينبغى ان تعرفيها وتتأكدى منها هى : **ان الرجل لايقفز الى الوجود فى اللحظة التى يلتقى فيها بك .. بل ان له حياته التى عاشها قبل ان يراك ، وكلما كان الرجل مليحا او جذابا ، كلما كانت حياته حافلة .. فهو لم يعش فى قمقم الى ان اتيح له ان يلقاك ، وانما كانت له علاقاته ، والتزاماته ، واهواؤه ، ومصالحه .. ومن المحتمل جدا ان يكون « غير خال ! » .. فربما كانت له حبيبة يهواها ، وان اهتمامه بك انما قام على :**

١ ــ انها متغيبة لفترة من الزمن وانه احس بحنين الى صحبة ناعمة ..

٢ـ أو أن بينهما شقاقا خفيفا ٠٠ مؤقتا !
٣ ـ او انه فى حاجة الى شيء من « التغيير » !
٤ ـ او انه فى حاجة الى رفيقة « احتياطية » .. للطوارىء !

وفى اى من هذه الحالات ـ اللهم الا الحالة الرابعة احيانا ـ لا يكون ثمة امل فى ان تحتفظى بصاحبك هذا بصفة دائمة .
ومن المحتمل ايضا انه حين التقى بك انما كان « يتفقد سوق النساء ! » كأن يكون قد نفض يديه ممن كان يعرف ، فأخذ يبحث عن بديلة .. على انه ليس من المحتمل ان يبت فى اختيار تلك البديلة بمجرد ان رآك .. وانما هو يجب ان يستعرضك فى خياله ، ويفكر فيك ، ويتأمل ما كان من تصرفاتك ، وما علق بباله من اوصافك .. ويتفقد ما خلفته من آثار فى نفسه بعد ان فارقك .. الخ

وفيما هو مستغرق فى هذا التفكير ، قد يلتقى بفتاة ذات صفة معينة تستهويه ، او لشعرها اريج شعر امه مثلا ، فاذا هو يقع صريع هواها .. ولا يعود اليك قط ! .. ان كل بائع يدرك ان مشقة اقناع العميل بالشراء تتضاعف اذا كان فى صحبة ذلك العميل صديق . كذلك حال الفتاة مع اصدقاء الرجل ، فالعاقلة من تتجنب ملاقاة اصدقاء رجلها واهله الى ان تمسك بعنان عواطفه تماما .. فان فرص توطد العلاقات الجديدة تتلاشى اذا انتقد المعارف المقربون والحميمون الصديقة الجديدة !

التظاهر ٠٠ أو الانتقام !

◆ **كذلك** من المحتمل ان يكون المعجب الذى اختفى « محبا للتظاهر » ، ليست له حبيبة ، ولا هو يبحث عن واحدة ، لانه عاجز عن أن يسعد أية امرأة ٠٠ وانما هو يبغى ان يظهر انه رجل ككل الرجال ، فهو يقدم على سلسلة من العلاقات العابرة ، مستغلا الفرص مع اولئك اللائى قد

يكون فتيانهن قد هجروهن ، ليبدو امام الناس بمظهر الفتى الذى تتهافت على صحبته البنات !

.. او قد يكون الرجل الذى هجرك من طراز « الدون جوان » الذى اساءت اليه امراة – او عدة نساء – فهو يسعى الى الانتقام .. ويكون الدافع له فى هذه الحالة امر اقوى من الميل الغريزى لدى الرجل .. وهذا « الدون جوان » عادة جذاب ، فاتن – لان غير الجذاب يخفى خيبته بالانطواء عليها – ومن ثم فانك تجدين من سحره ، واقباله وتقربه ، ما يعمى عينيك عن حقيقته ، فلا تفطنين اليه الا بعد ان يكون قد اساء اليك !

اما وقد عرفت الاسباب التى وراء انسحاب الرجل فجأة ، فلا ينبغى لك أن تجزعى أو تفقدى ثقتك فى نفسك اذا هجرك صديق .. بل تقبلى الهجران فى فلسفة .. ليكن رائدك ان تتوقعى الحادث غير السار قبل حدوثه ، فتعدى نفسك لعدم الاكتراث به اذا ما حدث ..

٣ – كيف تتقبلين تقرب الرجال !

◆ **ومهما** كانت الظروف التى تلتقين فيها برجل يبدى بك اعجابا ، فخليق بك أن تتبعى سياسة إستعملتها أنا مرارا فأسفرت عن نجاح :

اذا سألك عن رقم تليفونك ، فلا تمليه عليه .. وانما حسبك ان تجيبيه قائلة : « بل اعطنى انت رقم تليفونك ، وسأتصل بك بمجرد ان افرغ من شواغلى » .. او « من الافضل ان اتصل انا بك » .. ولسوف يؤخذ بهذا الانقلاب فى الوضع ، بل انه قد يرتبك .. فلا يلبث ان يعطيك رقمه وهنا تكونين قد غدوت فى امان .. فهو لا يعرف رقم

تليفونك ان كان يبغى أن يسيىء اليك .. وهو لا يستطيع ان ينساك لو شاء ، لان لديك رقم تليفونه الذى تستطيعين به أن تذكريه بنفسك ـ فكثيرا ما يحتاج الرجل الى بعض العون لكى يستقر على قرار ، ومن ثم فان صوتك قد يحفزه على البت ـ وهناك الف حجة للاتصال ، والف موضوع للحديث ..

وقد لا يذكرك اذا اتصلت به .. وفى هذه الحالة ، بادرى الى قطع الاتصال ، وتناسيه .. لان عدم تذكره اياك ، دليل على انك لم تتركى فى نفسه اثرا ..

كذلك اذا تذكرك ولم يدعك الى لقاء ، فالقى رقم تليفونه فى سلة المهملات .. لان اى رجل لا يعدم ان يجد بين مشاغله فرصة للقاء امراة ، اذا كان تواقا لرؤيتها ..

على ان نجاح اتصالاتك التليفونية او اخفاقها لا ينطوى الا على أهمية نسبية ، وانما أعظم فائدة تجنينها من عدم الادلاء برقم تليفونك هى انك تريحين نفسك من وطأة قضاء وقتك تتطلعين الى التليفون فى قلق وارتقاب ، وتحاولين ان تجدى الف عذر او احتمال يبرر عدم اتصال فتاك بك .. بل ان جهله برقم تليفونك ، ومعرفتك برقم تليفونه ، يبعث فى نفسك الشعور بالتفوق والامتياز ، لان فى يدك وحدك ان تقررى اتصال المعرفة او اهمالها !

كيف تتخلصين من رجل دون ان تؤذى شعوره

◆ **ما اجمل** ان تتبينى انك الاسبق الى ان تضعى نهاية للعلاقة .. وانك الراغبة فى التخلص من الرجل ! .. اذا كان قد اساء اليك او استثار رغبتك فى الخلاص منه ، فاقدمى على وضع حد لعلاقتكما بطريقة تحرمه لذة البدء بقطعها .. اما اذا كنت راغبة فى الخلاص لمجرد انك بدات تسأمينه او لانك وجدت سواه ، او تبينت انه لن يفاتحك فى الخطوبة ،

فترفقى به ، لانه ـ على كل حال ـ بشر .. ولانه قد اتاح لك السرور زمنا .. ولانك قد ترغبين فى العودة اليه يوما !

واحرصى على ان تظهرى فى ابدع مظهر كان يعجبه ، عندما تعتزمين الاقدام على الخطوة الحاسمة ، حتى تضمنى انه سيذكرك فى المستقبل فى حسرة وندم كلما راى ما يذكره بك ، او شم عطرا له اريج عطرك !

كذلك يحسن ان تحرصى على اختيار المكان المناسب لاعلانه بالقطيعة ، سواء فى مرقص ، او مطعم ، او حفلة ما .. وليكن مكانا حافلا بالناس ، ليتعذر عليه ان يثير ضجة او ثورة ، او ان يحاول تبديد عزمك بحرارة قبلاته .. ثم ، لتستمتعى بتنفيذ عزمك على مرأى من الملأ !

وخليق بك ان تكونى بالغة اللطف فى مسلكك ، حتى يشعر بأنه فقد فتاة رائعة ، مشتهاة .. لا جاحدة ، متقلبة ! .. لا تستغلى الماضى لتأنيبه ، بل قولى له انك ستذكرينه بالخير كشاب من الطف من عرفت من الناس .. وشيعيه بابتسامة ووداع رفيق ..

اما الحجة التى تتكئين عليها فى انهاء علاقتك بصاحبك ، فجدير بك ان تتلطفى فى اختيارها .. اخفى عنه انك بدات تضيقين به مثلا ، فليس أدعى لجرح كرامة الرجل من ذلك .. وقولى له ان أمك ـ مثلا ـ بدأت تنتقد كثرة لقائكما .. ومثل هذه الحجة تنقلب احيانا الى حافز يدفعه الى التعجيل بالتقدم اليك للزواج .. وهنا يحسن بك ان تفكرى فى الامر.. فالصديق الذى يبدو مملا ، قد ينقلب الى « عريس » مقبول ، لطيف المعشر ، أنيس .. أما اذا شعرت أنك غير راغبة فيه اطلاقا ، فارفضى طلبه بين فيض من الدموع .. وهذه هى الحالة الوحيدة التى انصح فيها باللجوء الى الدموع .. ومن السهل استدرارها ! !

اما اذا لم تستحسنى استغلال نفوذ « الام » كحجة للخلاص من صاحبك ، فقولى له انك قد وقعت فى الحب .. واذا كنت قد عثرت فعلا على صاحب جديد ، فلا تسرفى فى الحديث عن مزاياه وخلاله ، بل اقتصرى على ان السبب الاوحد للتفضيل هو .. ان الجديد طلب يدك ! .. واحرصى دائما على القول بأنك ستتزوجين من الجديد ، فان هذا يجعل الصديق القديم يشعر بغبطة لانه لم يعد متورطا بل انه نجا من الحرج فيما يتعلق بالزواج !

اما اذا لم تجدى حجة ترضى نفسك ، فلا بأس من ان تذكرى لصاحبك بصراحة انك انما تنشدين زوجا ، وتسعين الى الرجل الذى يتيح لك بيتا خاصا تكونين ربته ، ومن ثم فليس بوسعك ان تدعيه يحتكر اوقاتك لنفسه .. وهذه الوسيلة ايضا قد تحفزه الى ان يبادر بعرض خطوبته .. على اننى أنصحك بأن لا تعمدى الى هذه الطريقة الا اذا كنت قد عزمت عزما جديا على الخلاص من صاحبك مهما كان الامر ..

وعلى كل حال ، فأهم الامور هو ان لا تدعى نفسك تشقين بصاحبك اذا كنت قد عزمت على هجره .. فليس من مجال يبرر أن تألمى لرجل ، اذ ان مجرد انتمائه للجنس الخشن دليل ايجابى على انه اذا لم يكن قد اساء من قبل الى اكثر من امرأة ، فلا بد أنه سيسىء فى المستقبل .. ومن ثم فهو يستحق الالم الذى يصيبه من هجرانك .. واذكرى ان اى غرام لا ينتهى الى زواج ، لابد ان يؤدى الى ان يسعى احد الطرفين الى التخلص من الطرف الاخر ..

كيف تخلقين الشقاء والنكد للرجل !

◆ **ناديه بأسماء التدليل** : ففى نشوة العناق مثلا ، اهمسى فى اذنه : « آه يا حبيبى تومى » او « اواه يا ديكى » .. فسرعان ما يشعر بدمه يقف فى عروقه ، اذا كان اسمه بعيدا عن القاب التدليل هذه !

قدمي اليه هدايا : قدمى له زوجا من الجوارب اكبر من الحجم المناسب له ، حتى اذا جربهما ، اغرقى فى الضحك ، وكررى انك لم تكونى تحسبينه صغيرا الى هذا الحد . . وتستطيعين المضى فى هذه الطريقة بقدر ما تسمح لك مواردك المالية ، فتبتاعين له مرة قميصا اكبر من حجمه ، ومرة اخرى « بيجاما » مفرطة الاتساع .. فان ظهوره بمظهر الضآلة وصغر الحجم يمس شعوره .. واذا كان صاحبك ضخما ، فاعمدى الى العكس .. ابتاعى له اشياء اصغر من مقاسه !

اظهرى اهتماما وشغفا : ولكن .. بالاشياء التى لا تلذ له او تثير اهتمامه ! .. وفرى له جوا عاطفيا شاعريا يستخفه الى تقبيلك .. ثم فاجئيه بالحديث عن طرق ازالة بقع الحبر ، او ما اليها .. واديرى الراديو واقبلى على الثرثرة طالما كانت انغام الموسيقى منسابة .. فاذا توقفت اذاعة الموسيقى فكفى من الكلام .. واذا أذيعت نشرة البورصة والاخبار التجارية ــ مثلا ــ فاحرصى على الصمت والانصات اليها .. واختارى لحديثك معه فى العادة موضوعا يشجعه على الكلام عن نفسه ، فاذا استغرق فى ذلك ، تظاهرى بالنعاس ! .

كونى خيالية ، شاعرية : انصتى الى الموسيقى بهيئة حالمة ، واذكرى انها تذكرك بشىء .. ثم احرصى على ان لا تشرحى له هذا الشىء ! .. او حدثيه فى اعجاب عن رجل تعرفينه ــ او لا تعرفينه ، كممثلى السينما ــ واسهبى فى امتداح شكله ، وخلقه .. او اتفقى مع احدى صديقاتك على ان تتصل بك تليفونيا اثناء وجوده ، ثم تعمدى ان تتحدثى معها كما لو كانت رجلا ، وامزحى ، واضحكى بطلاقة . . أو أرسلى لنفسك طاقة ورد ودبرى الامر بحيث تصلك فى وجوده ، كأنها من صديق اخر ! .. او قولى له انه يذكرك

بشخص كنت تعرفينه ، وانه يرقص بمهارة كذلك الشخص ، فان المقارنات دائما تغيظ الرجل وتعكر عليه هناءه !

سياسة الفتور والجمود : تقبلى عناقه وقبلاته فى فتور او برود او جمود .. وكأنك جثة هامدة .. واذا اوغل فى محاولة ايقاظ شعورك ، فتظاهرى بأنك تشعرين ببرودة تشيع فى جو الغرفة ، واسرعى بارتداء « سويتر » او « جاكيت »

المبالغة فى الحرص على الاناقة : تفادى قبلاته وقدمى له « شرابا » او اقراص « النعناع » .. او اكوى شعرك بشكل معقول واحرصى طيلة اللقاء على تجنب العناق لتصونى «تسريحة» شعرك ، وكلما ازداد التصاقا بك تباعدى ، حرصا على شعرك .. فان هذا يشعره بان « التسريحة » انما اعدت للقاء اخر بعد انصرافه ..

الاسراف فى الملاحظات : ابدى ملاحظات خاصة به : كتساقط شعره ، او ازدياد نعومة بشرته ، او ان « كرشه » بدأ يتضخم أو أن الشيب بدأ يدب فى شعره .. فان الرجال لا يقلون عن النساء حساسية ازاء كل ما يبدى تقدمهم فى السن .. ولكن احرصى فى ذلك على عدم الانتقاد ، وترفقى فى ابداء الملاحظات .. كأن تقولى له ان المظهر لا يهم ، مادام صاحبه أبعد من ان يبعث الملل الى النفس .. ثم ابدئى فى التثاؤب تباعا ! !

٤ ـ كيف ينبغى أن يحب الرجال ؟

◆ **هذه** الدراسات تتناول الفترة التى يكون فيها نفوذ الرجل قويا على المراة .. تلك الفترة من حياتها التى تقع بين المراهقة والزواج .. ولكن لا ينبغى ان ننسى ان هذه الفترة لا تدوم ، وان النصر فى النهاية لنا معشر الجنس اللطيف .. اذ لا يكاد الرجل يتردى فى شباك الزواج ، حتى تنقلب الاوضاع ، فيقوى نفوذ المراة عليه !

وعلم الرجل بهذا المصير هو الذى يحفزه فى صدر شبابه على العبث بالنساء وخداعهن وتحديهن .. فهذه هى الفترة الوحيدة فى حياة المراة التى تكون فيها عزلاء ، لا تستطيع ان تلجأ الى القوة للاستيلاء على عنانه ، ولا تستطيع ان توليه ظهرها وتنصرف عنه ، لان كل رجل يمثل اذ ذاك فرصة للزواج قد لا تتكرر .. كل ما تملكه المراة فى هذه الفترة هو ان تعامل الرجل فى رفق وفلسفة ، وان ترتقب المستقبل وهى موقنة من ان بقية العمر ستنفسح امامها لتنتقم .. بمجرد الزواج !

ذلك لان الزواج هو اعظم لحظات المجد فى حياة المراة .. انها لحظة انتصار نبوغها وقوة ارادتها .. لحظة السيطرة على زمام الرجل .. ذلك الوحش الذى يفوقها قوة وضخامة وعتوا .. ولكن لنذكر فى فترات الضعف وفى لحظات النصر ، **ان الرجال لا يستطيعون ان يعيشوا بدوننا !** .. فان حاجتهم الينا لا تنكر ، ولا يمكن لهم ان يقاوموها او يتجاهلوها ... وهذه الحاجة هى التى تكفل لنا سلاحا لا نهاية لقوته ، فلنتعلم كيف نمزج هذه القوة بجلال الانوثة وفضلها ولباقتها .. ذلك لان الرجل رغم وحشية طباعه ، والقسوة التى ورثها عن عهد الصبى ، وتقلب عواطفه ، ورغم نفاقه وغدره .. رغم كل ذلك الا انه افضل من اى شىء اخر خلق لتسلية المراة وامتاعها !

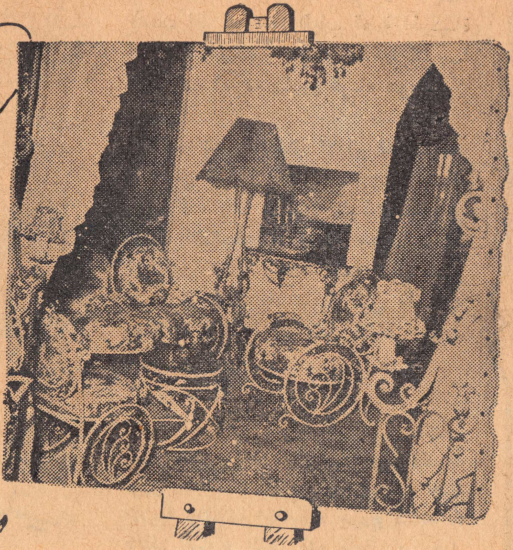
لذلك ينبغى أن نتجاوز عن مساوئه ، فليس من شىء فى الوجود كامل .. السنا نتقبل الحياة بما فيها من شرور ومساوىء ومكاره ومنغصات ؟ .. ومع ذلك فاننا نراها جديرة بأن نحياها ؟ .. وكذلك الرجال ، جديرون بأن نحبهم !

شرفوا بالزيارة معرضنا الجديد الذى افتتحناه أخيرا بممر اوريكو بشارع فؤاد الاول

من روائع فن الزعبلاوى



بهذا الاثاث الفخم
من الحديد الزخرفى
الجميل — وبهذا
النجف الرائع
يستطيع "الزعبلاوى"
بفنه أن يهيئ
لمنزلك الذوق السليم
والأناقة وأن يضفى
عليه البهجة والجمال



موبيليات
الحديد
الزخرفى



الزعبلاوى

الادارة والمعرض :
٤٩٩ شارع الملكة قرب غمرة
تليفون ٧٦٢٦٤

خلف النوافذ
المغلقة



عباقرة
الإنسانية
في حياتهم الخاصة

عزيزى القارىء ...

فى الاعداد الستة الاولى من (كتابى) قدمت لك فى هذا الباب قصة الحياة الخاصة لفيكتور هوجو ، كما كتبها اديب من اسرته وذوى قرباه هو «اليون دوديه»

وفى كتابى الممتاز الاول قدمت لك فى نفس الباب «اعترافات جان جاك روسو» ، وهو الكتاب الذى فتح فى الادب «الشخصى» فتحا جديدا ، اذ كان أول كتاب يتحدث فيه اديب عن نفسه ، «فيشرح» عيوبه قبل حسناته بصراحة وجرأة لم يكن للناس عهد بهما من قبل ..

وفى الاعداد الخمسة الماضية من كتابى قدمت لك الفصول الاولى من الكتاب الممتع الذى أصدره الاديب العالمى «أندريه موروا » منذ أسابيع ، وروى فيه حياة الاديبة والملهمة الخالدة « جورج صاند »، بالقلم البارع الذى قدم للعالم من قبل قصص حياة كل من : شيللى .. دزرائيلى .. بيرون .. تورجنيف .. فولتير .. ديكنز .. شاتوبريان .. الخ

واليوم اقدم لك الفصل السادس من هذا الكتاب الشائق الذى سوف تتابع فصوله التالية فى أعداد كتابى القادمة باذن لله

خلاصة ما نشر

◆ انحدرت جورج صاند من سلالة عجيبة ، كان بين افرادها الملوك، والقواد العظام ، والراهبات الذائعات الصيت ، والممثلات الشهيرات .. الخ - وكان لكل نساء الاسرة ابناء وعشاق ، وكن مولعات بالابناء اكثر من ولعهن بالعشاق! .. وتقاطر سيل الابناء غير الشرعيين فى العائلة بغير حساب ، لكن اباءهم كانوا يعترفون بهم ، فينشأوا فى ترف ورفاهية ، كابناء الملوك !

وعن هذه السلالة العجيبة ورثت جورج صاند تحديها الجرىء للحياة ، وتعلقها بالارضيات ، وشراهتها الجنسية .. حتى ليمكن القول بحق ان تاريخ اسرتها فيه الكثير من عناصر قصص الف ليلة وليلة !

وكان ابوها - موريس دو بان - ضابط اركان حرب فى الجيش الفرنسى، فالتقى اثناء الحملة الايطالية بحسناء فاتنة الطرف ضاحكة السن ، تدعى صوفى ديلابورد - وكانت عشيقة قائده ! - وقد كتبت جورج صاند فيما بعد تصفها بقولها : «كانت امى من النوريات الفجر ، سليلة جنس منحط متشرد .. وقد كانت - فى فتـــرة من حياتها - راقصـــة ، او بالاحرى شيئا احط من راقصة ، فى ملهى من اقذر ملاهى باريس سمعة !.. حتى قيضت لها الاقدار رجلا موسرا انقذها من هذا الوحل ، ولكن ليفرض عليها حياة اكثر وحلا ! وحين التقى ابى بها كانت فى الثلاثين ، تعيش فى دوامة من الفوضى الضارية .. لكنه كان ذا قلب كبير ، وقد ادرك ان الحسناء التعسة ما تزال قديرة على ان تحب ، وتهب قلبها مخلصا لمن تحب»

لكن موريس اشفق من مصارحة امه - الوقورة المتزمتة - بحبه لتلك المرأة ذات العفة الجريحة ، وبتفكيره فى الزواج منها .. فلبث يرجىء «الازمة» حتى حملت صوفى منه ، فاضطرا الى عقد زواجهما سرا فى ١٦ ابريل سنة ١٨٠٤ .. وفى مساء أول يوليه من نفس العام وضعت صوفى مولودتها «أورور» التى سنرى نجمها يلمع فى التاريخ باسم «جورج صاند» !

بين بيت جدتها .. والدير !

◆ وحين بلغت «أورور» عامها الرابع فقدت اباها ، على أثر سقوطه من على ظهر جواده ، وتزايد النفور بين امها وجدتها - وكانت الاخيرة قد عارضت فى زواج الاولى من ابنها الراحل - فاضطرت الام الى الرحيـل الى باريس ، تاركة طفلتها فى كنف جدتها الارستقراطية الثرية ، كى لا تحرمها من هذا الترف ! وجلبت لها الجدة من علمها الموسيقى ، واللغة اللاتينية ، والعلوم الطبيعية

.. فقرأت الصبية «الياذة» هوميروس وهى فى هذه السن الباكرة !.. لكن الجدة اخطأت ذات يوم فصارحت حفيدتها بماضى امها الملوث ، فاحدث ذلك فى نفسية اورور ازمة عنيفة جعلتها ترفع منذ ذلك اليوم راية العصيان والتمرد .. حتى لم تجد الجدة بدا آخر الامر من ادخالها احد اديرة باريس كى تتم علومها بين جدرانها !

لكن حرص العجوز على الاطمئنان على مستقبل حفيدتها ، قبل موتها، جعلها تخرجها من الدير كى تعدها للزواج .. غير ان منية الاولى حانت قبل امنيتها ، وكانت اورور ما تزال فى السابعة عشرة ، فاخذتها امها لتعيش معها فى باريس .. لكن جنون الام المتزايد كاد يفرض على المسكينة زواجا اجباريا ، فأوشك الكمد أن يقتلها .. بحيث اضطرت أمها الى أخـذها لتقضى أياما فى ضيعة اسرة من اصدقاء زوجها القدامى ، بغية تبديل الهواء ..

زواج .. وخيبة امل !

◆ وعن طريق هذه الاسرة تعرفت اورور الى الضابط الشاب «كازيمير دوديفان» ، فلما فاتحها فى الزواج قبلته مرحبة .. ولم تلبث ان زفت اليه .. غير انها سرعان ما تبينت - ولاسيما بعد انقضاء النشوة الاولى وبعد ان رزقت بطفلها الاول «موريس» - ان بين طباعها وطباع زوجها تنافرا كبيرا ، فبقدر ما كانت هى تتذوق الادب والفن والموسيقى ، كان هو يجهل هذه كلها ولا يعبأ بغير ما يشغل الرجال التافهين .. وحتى المتعة الجنسية كان يشوبها التنافر ايضا بين شهوانية الزوج ، وبرود الزوجة ! كان هو ينشد فيها المرأة ، وهى تنشد فيه العاشق «الروحى» الذى يحقق لها احلام صباها .. بالحب !

حب عذرى

◆ وفى غمرة هذه العزلة النفسية الموحشة التى كانت تعانيها اورور ، التقت بالمحامى الشاب «اوريليان دى سيز» ، وكان مرهف الحس ، ذواقة للشعر ، فوقع من فوره اسير هواها .. لكنه كان عفيف النفس فلم يسألها اكثر من الصداقة الخالصة ، وان اعترفت هى لصديقاتها بانه لو طالبها بالمزيد لعجزت عن الضن عليه بما يشتهى ، ولو أدى بها الامر الى التضحية بنفسها ، وباخلاصها لزوجها !

وكان اقصى ما ناله اوريليان منها ان ضمها الى صدره ، فى عناق عذرى .. وذات يوم فاجأهما الزوج فى موقف عاطفى مشابه ، لكنها اقنعته ببراءتها.. واستمرت على صلتها بفتى احلامها ، بعد ان جددا العهد بان يتبادلا الحب دون ان تشوبه صلة جسدية .. فقد كانا يؤمنان بامكان قيام صداقة طاهرة بين الزوجة الوفية ، و«صديق العائلة» !

وبالفعل التزم العاشقان ميثاقهما العذرى ـ وان تحللت منه الزوجة فى احلامها ، حيث كانت تطلق العنان لرغباتها .. فتمنح نفسها له ! ـ ولكن بمرور الايام بدأ يدب فى خطابات الشاب اليها لون من الفتور ، والتراخى ، فادركت اورور استحالة ان تحتفظ امرأة برجل ، دون رباط من التجاوب الجسمانى . استحالة ان تكون معشوقة ، ولا تهب عاشقها جسدها !.. ولم تعد خطابات اوريليان المتباعدة تصلح «خطا دفاعيا» قويا لها ، يحميها من الاستجابة لمغازلات «المعجبين» الملتفين حولها !

وكان قد ظهر فى افق حياتها شاب عرفته فى بيت جدتها قبل ان تتزوج، يدعى «ستيفان دى جراندسانى» .. ووجدت فيه اورور اكثر من سبب يجذبها اليه : فهو اول من ايقظ فيها عواطف الانوثة فى صباها ، ايام ان كان يدرس الطب ويلقنها دروس التشريح فى غرفتها الخاصة .. وهو باحث مطلع يتجاوب ذهنه مع ذهنها .. وهو اخيرا مريض يستدر عطفها الفطرى على المرضى (اذ كان نصف مصدور ، ونصف مجنون !)

وصارت تراه كثيرا ، لاسيما فى فترة تغيب زوجها فى باريس . ثم لم يكد الزوج يعود حتى رحلت هى الى باريس ، وكان ستيفان قد سبقها اليها!

والان تستطيع ان تتابع القراءة :

الخطوة الاولى .. نحو الانحدار !

وبدأت رائحة الفضيحة تفوح ، وكثرت الاقاويل عن علاقة «مؤكدة» بين الاثنين ! كيف لا وهى ترى كثيرا فى صحبته ، وتسافر معه ، وتتسكع واياه فى شوارع باريس ؟!.. وقد ازاحت اسرة ستيفان النقاب حديثا عن رسائل غاية فى « الحرارة » تبادلها العاشقان !.. ومما يلاحظ فى هذا الصدد ان خطابات اورور التى كتبتها الى زوجها فى تلك الفترة تميزت بالمغالاة العاطفية التى تنغمس فيها النساء الخاطئات نتيجة « شعورهن بالاثم » !

وقد تعللت أورور لزوجها بان تأخرها فى باريس راجع الى رغبتها فى استشارة عدد من الاطباء.. وقد استشارت اشهرهم فاكدوا لها ان صحتها على ما يرام !.. والواقع ان ما بها لم يكن منشأه سوى وخز الضمير .. وحين عادت الى (نوهان) آخر الامر اصيبت بنوبة من الكآبة (السوداء) التى هى من اعراض

الصراع النفسانى الناشىء عن ذلك الشعور بالاثم !

بل انها كتبت الى صديقتها (زوى ليروى) تقول : « لست اسألك ان تستمرى على محبتك لى كما كنت فى الماضى ، فلست بالمستحقة حب اى انسان !.. انى مثل حيوان جريح يزحف الى ركن قصى ليلفظ فيه انفاسه فى هدوء .. ولست مستطيعة ان الجأ الى اصدقائى كى احصل منهم على اغاثة او سكينة نفـــس ! »

ما سر هذه المذلة المفاجئة من امرأة ذات طبيعة ابية ؟! لقد كانت تحمل فى احشائها جنينا جديدا حين عادت الى (نوهان)، واغلب الظن ان ستيفان كان المسئول عن ذلك الجنين ، سيما وهو قد ولد فى تاريخ لاحق بتسعة اشهر لفترة اقامتها فى باريس ! وقد زعمت اورور انها حبلت بهذا الجنين بعد عودتها من باريس ، وانه قد ولد قبل موعده المفروض نتيجة صدمة فزع اصابتها حين سقطت طفلة اخيها من السلم قبل الوضع بايـــام !

وذات يوم ، قبيل الوضع ، وصل «الصديق» القديم أوريليان الى نوهان على غير انتظار ، فوجد ((صديقته)) تعد الثياب لمولود منتظر !.. فوجم الشاب ولم يعلق بكلمة ، ففقد حيره التوفيق بين المولود القادم وبين مزاعم اورور المتوالية فى خطاباتها اليه بشأن العفة المطلقة التى تلتزمها ، حتى مع زوجها !.. وعلى اثر عودة اوريليان الى باريس كتبت زوى ليروى الى صديقتها اورور تقول عنه : ((انى عندما رأيته بعد عودته كان يبدو عليه الحزن الضارى المخيف ، بحيث لم املك قمع شعور تولانى بانه قد خلف وراءه فى نوهان طوفانا من التعاســة والاسى والوحشة القاسية !))

الزوج بدوره ينحدر !

وحين حلت ساعة الوضع حملت اورور الى الفراش فى ظروف اليمة من اكثر من ناحية : فقد سقط أخوها مغمى عليه فى مخدعها من فرط الشراب .. ومن فراشها استطاعت اورور ان تسمع حديثا عابرا كان يجرى فى الحجرة المجاورة بين زوجها وبين خادمة فى البيت تدعى «ببيتا» ، لم يدع مجالا للشك فى وجود علاقة آثمة بينهما !

ووضعت اورور طفلة كبيرة الجسم رائعة الجمال اطلقت عليها اسم «سولانج» .. ومنذ ذلك التاريخ لم يكن ستيفان يصل الى نوهان ويستدرجه اصدقاؤه فى الحديث ، حتى يجيبهم : «وفيم الانكار ؟ انى ذاهب لارى ابنتى !» .. بل ان اورور نفسها صارت تشير الى الطفلة احيانا بقولها : «مدموازيل ستيفان» !

اما الزوج .. فلم يبد اية اشارة توحى باعتزامه تطليق زوجته .. بل انه ازداد تعلقا بنوهان ، وبابنه ، بل وبأورور .. التى صارت تمارس معه ذلك السلطان الذى تمارسه الشخصية القوية على الشخصية الاضعف منها ! وامعن المسكين فى اغراق اساه فى الخمر . وازداد تبلدا فى الذهن ، بحيث لم يعد يحسن غير الشخير كلما جن الليل . وكان قد عمد الى بضع عمليات تجارية عادت عليه كلها بالخسارة ، الامر الذى ضاعف من مذلته وانكساره . لم يعد له ملجأ آخر يأوى اليه بعد استئثار زوجة ابيه بكل الميراث ، فاضطر لان يعقد مع زوجته اتفاقا متبادلا : يتعهد كلاهما بمقتضاه بان يدع للاخر حرية اللهو مع من يشاء !

وشفعت اورور هذا الميثاق بهجر مخدع الزوجية والانفراد بنفسها فى مخدع مستقل لا تشاركها فيه غير كتبها واحلامها وتأملاتها ! وكانت هذه التأملات قد عادت تحوم بها حول شاطىء الصوفية والتدين الذى ارتادته فى يفاعتها اثناء مقامها فى

الدير . ولم تجد تعارضا بين تقوية اواصر صلتها بالله ، وتنفيذ «ميثاقها» الجديد مع زوجها ، فان عقلها كان قد استبعد فكرة اعتبار الزنا خطيئة مميتة!.. وانما صارت تعتقد ـ شأن امهامن قبل ـ «ان هذه الاشياء لا غضاضة فيها ما دامت تصدر عن حب !» .. بل انها اسفت لانها عرفت صديقها اوريليان (وفترت علاقتها به) قبل ان تقدم على هذه الخطوة فتلقى بنفسها فى خضم حياتها المتحررة الجديدة ! ولو شاءت الظروف لكان هو العاشق المثالى الكامل الذى يلزمها .

عاشق جـديد !

وفى تلك الاثناء كبر ابنها موريس فصار غلاما .. وارادت ـ بصفتها تلميذة مخلصة لمبادىء جان جاك روسو ـ ان تلقن الصبى مبادىء التربية المثالية التى سنها روسو فى كتابه «اميل» ، فجلبت له مربيا خاصا يدعى «جول بوكواران» ، بعد ان تعاقدت معه لمدة ثلاثة اشهر على سبيل الاختبار ..

ووقع المربى الشاب فى هواها !.. لكنها ذادته عن نفسها . كان اقصى ما سمحت له به «قبلة» كافأته بها على مهمة اداهالها فى احدى زياراته لباريس . وفى تلك الآونة كان زوجها مشغولا بصلتين آثمتين مع خادمتين : احداهما مربية «ابنته» المزعومة (سولانج) ، والاخرى خادمة احدى صديقات الاسرة !

ومضت الايام ، واورور حائرة موزعة الفكر ، تحلم باشياء اروع بكثير مما يمكن ان يجرى فى حدود ضاحيتها المتواضعة (نوهان) .. فهناك ، فى العاصمة البعيدة ، كان يصطخب مجتمع انيق خلاب ، يتبادل فيه الرجال والنساء الآراء والمشاعر بحرية مطلقة .. وكانت اورور على استعداد لان تسافر الى اقصى الارض كى يكتحل بصرها فقط برؤية مسيو «بلزاك» يمر بجوارها فى الطريق ! اما «هوجو» فكانت «تعبده» كما تعبد الآلهة .. ولكن برغم ذلك فقد كانت «هيبة» صيت الاديبين

الكبيرين تقعد بها عن السعى الى لقائهما . وحتى حين كانت تأخذ ابنها موريس الى باريس حيث تنزل فى مسكن لاخيها غير الشقيق ، فانها لم تكن ترى او تلقى غير امها (وفى صحبتها صديق قديم من اصدقائها) ، وغير عشيقها ستيفان بالطبع ..

الفصل الرابع

الفتى « جول صاندو »

◆ **نحن** فى عام ١٨٣٠ .. الحياة فى (نوهان) تسير سيرها الرتيب ، والزوج الضائع «كازيمير» يذرع الحقول والغابات على غير هدى فى النهار ، ويقسم امسياته بين الشخير واللهو مع «ببيتا» مربية طفلته !.. اما الزوجة «اورور» فكانت متعتها الوحيدة فى ذلك الجو الراكد الآسن ان تمارس سلطانها على جيران ضيعتها من الرجال ، فتمتطى جوادها كل يوم لتزور واحداً منهم بغير ان تلقى بالا الى زوجها

وفى ٣٠ يولية من ذلك العام مضت لزيارة واحد من هؤلاء الاصدقاء ، فالتقت فى داره بأفراد آخرين من «شلة» اولئك المعجبين بها .. **كما التقت بفتى فى التاسعة عشرة لم تره من قبل ، يدعى «جول صاندو» .. وكان شابا جذابا يبدو بخصلات شعره الذهبى أشبه بالقديس «يوحنا المعمدان». وعلمت اورور انه ابن محصل للضرائب ، وانه يدرس القانون فى باريس ، وقد جاء ليقضى اجازته فى الضاحية ..**

ولم تكد المرأة تدخل حتى انسحب الفتى من المكان ، ومضى وفى يده كتاب الى حيث جلس على مقعد فى الحديقة تحت شجرة تفاح عتيقة .. واشعل هذا الخجل المفرط حواس الزوجة الشابة ــ وكانت لم تتجاوز ربيعها السادس والعشرين

ـ فاستدرجت الحاضرين جميعا الى حيث انزوى «جول» فى الحديقة .. وهناك حلالها ان تدير دفة النقاش فى موضوع الثورة التى نشبت فى باريس فى ذلك الحين ..

فتى الاحـــلام !

وفى اليوم التالى مضى «صاندو» مع الجماعة ذاتها لزيارة أورور فى دارها .. وحين عاد فى نهاية الزيارة كانت ربة (نوهان) ذات الجمال الضارى ، والعينين الســوداوين اللامعتــين ، والشخصية القوية ، قد استأثرت بلبه وحاصرت خياله ! وكان واضحا انها قد اولته اهتمامها ، الامر الذى كان فى ذاته كافيا لان يوقعه فى غرامها «حتى اذنيه» !.. كيف لا وقد وجدها ساحرة الشخصية ، تحب التحدث فى الاشياء التى يروقه الحديث فيها .. وتتحدث فيها ببراعة نادرة ؟ بل لقد جذبته اليها ايضا قوتها ، وضعفه .. والشبان ذوو الشــخصية الضعيفة يختــارون خليلاتهم عادة ممن تغلب فيهن مســحة الامومة القوية .. بينما تؤثر الضعيفات الاستظلال بحماية الرجال الاقــوياء ، ويتخـذن من ذلـك ذريعـة لان يصرن اسيرات الحب !

وقاومت اورور عاطفتها الجديدة عدة اسابيع ، مقاومة تميزت بالبطولة الجبارة ، فقد كان كل ما فى الفتى يغريها : شبابه اليافع ، وبشرته الوردية الناصعة ، وشعره الذهبى ، وميوله الذهنية ، والمسحة الباريسية التى تغلفه .. وضعفه للاحلام والتأملات ! .. «وتزايد شغفى به يوما بعد يوم .. حتى وجدتنى ابوح له يوما بحبى ، قبل ان اعترف بهذا الحب لنفسى ! كيف حدث هذا ، لست ادرى .. فقد كنت قبلها بخمس عشرة دقيقة جالسة بمفردى فى مواجهة سلم البيت ، وفى يدى كتاب لا اقرأه الا بعينى .. اما عقلى فقد كانت تشغله فكرة واحدة ، عذبة ، رائعة ، ولكن غامضة .. يكتنفها الابهام !»

وقد عاشت اورور زمنا تذوب رقة وحنينا كلما تذكرت المكان الذى تطارحا فيه الهوى لاول مرة : « .. كان ذلك على مقعد خشبى طويل فى خميلة ظليلة بحديقتى .. فهنـاك ، وجد قلبانا للمرة الاولى الكلمات التى يعبران بها عن مشاعرهما .. هناك كان يجلس صاندو فى انتظارى ، متعبا ، لاهثـا ، تحت اشعة الشمس الدافئة او زئير العاصفة المزمجرة .. وكان يجد كتابى ووشاحى راقدين فى انتظاره ، فاذا سمـع خطواتى تقترب هرع ليختفى فى احد الممرات الكثيفة الشجر .. لكننى كنت ارى قبعته الرمادية وعصاه على المقعد الخشبى .. لاشىء من الحماقة فى هذه التوافه التى يتبادلها العاشقان، او هذا الهراء من التفصيلات النابضة بالحياة !»

وكانت فى (نوهان) دار صغيرة صيفية تطل من ناحية على الحدائق ومن الناحية الاخرى على الطريق العام ، ويستطيع المرء ان يدخلها دون ان يمر بالقرية او يجتاز باب الحديقـة الرئيسى .. ومن ثم يظل بمنأى عن اعين الخدم المتطفلين .. وهناك ، فى هذه الدار .. اقدمت اورور على الخطوة الاخيرة !

العاطفة والعقل فى كفتى ميزان !

◆ **وبدأت** القرية تلغط بحديث الصلة «الوثيقة» بين الزوجة الشابة والفتى اليافع !.. ولكن ماذا يهم اورور ما دامت سعيدة بحبها ؟ وشجعها انها كانت تعيش فى فرنسا عام ١٨٣٠ ، حيث كانت العاطفة قد خلفت العقل على عرش الانسان ، وصعدت اهازيج الشعراء ونظريات الفلاسفة وعلماء الاجتماع المحدثين الى رؤوس الشبيبة الجديدة . لم يعد الفرد كما كان فى القرن السابع عشر ، عضوا مسؤلا فى جماعة دينية واجتماعية ، وانما صار نهاية فى حد ذاته ، وموضوعا للتأملات التى تدور حول عبادة الجمال .. ومعلوم ان «النمر» اجمل شكلا من الخراف، لكننا نفضل ان نراه خلف القضبان . والعاشق التقليدى ينزع

القضبان ويستمتع بالقفزات والهجمات المروعة التى يبيد بها النمر الخراف ! وهو يحض الرجال على ان يتصوروا أنفسهم نمورا ، ويفعلون فعلها .. وحين ينجح فى دعوته ، لا تكون النتائج جميعا سارة !

ومما لا شك فيه ان الحقيقة تقلد الخيال ، وتحاول ان تحاكيه : ففى عصر « جوته » أحب الشباب على طريقة «فرتر» ، وفى عصر « هوجو » أحبوا على طريقة « هرنانى » .. الخ — وقد كانت «أورور» بطبيعتها «نمرة» ضارية ، لكنها بحكم طابع العصر السائد مثلت دور آلهة الشعر الرقيقة ، الوديعة .. وحين انتهت فترة العطلة ورحل العاشق الشاب الى باريس احست بوحدة ووحشة قاسية ، فحاولت اغراقهما فى سيل من الرسائل الوجدانية الرقيقة الى حبيبها ..

التفكير فى الفرار !

لكنها شيئا فشيئا بدأت تضيق بحياتها فى (نوهان) ، وبلياليها الفارغة الموحشة — سيما بعد اخلاد ولديها موريس وسولانج للنعاس — وكان زوجها لا يكف عن صحبة الكأس ، برفقة اخيها غير الشقيق هيبوليت .. فبدأت اورور تداعب فى خيالها فكرة اللحاق بحبيبها «جول» فى باريس ، بعد ان غدت حياتها «الزوجية» مزحة هزلية لن ينقذها منها غير ان تلوذ بالفرار !

وما الذى يعوقها عن الفرار ؟ الدين ؟ انها ما تزال تدين بدين تلتزم طقوسه ، ولكنه دين الحب !.. ام تعوقها الاخلاق؟ لكنها كانت تعيش فى ايام كان اشد المتزمتين فيها يعظون بحق الانسان فى «المتعة» !.. وكانت هى شابة ، وكانت امرأة ، وكانت ذكية ، وارادت ان تتبع خطى قادة الفكر فى عصرها ..

ام كان يعوقها عن الفرار زوجها ؟ لقد كانت له خليلاته ، وهى لا تفهم سببا يبرر ان تكون حرية احد الزوجين فى هذا الصدد حرية من طرف واحد !

ودون ان تضيع اورور يوما واحدا ، اعلنت لزوجها قرارها الذى لا رجعة فيه : «اريدك ان تعطينى ثلاثة آلاف فرنك ، فانى راحلة لاقيم فى باريس .. وسيظل الاطفال هنا فى (نوهان)!»

.. وأدهشت كازيمير لهجة الحزم التى نطقت بها زوجته هذه الكلمات ، كانت لهجة جدها الاعلى ماريشال فرنسا «موريس دى ساكس» ذى الارادة الحديدية .. بل كانت لهجتها تنطوى ايضا على مكره «الستراتيجى» ، فهى قد حرصت على ان تغلف قرارها الجرىء بقفاز من «حرير» ، فأضافت أنها لن تهجر زوجها واولادها الى غير رجعة .. وانما تقبل ان تبقى فى باريس ستة اشهر من كل عام ، والستة الاشهر الاخرى تمكثها فى (نوهان) .. فاذا راقته هذه الشروط فهى على استعداد لتنفيذها فورا !

ووافق الزوج على هذا الحل الذى يحتفظ للزوجية « ببيت » مزعوم .. رعاية للمظاهر !

تحترف الكتابة .. لتعيش فى باريس !

ولكن كيف تعيش اورور فى باريس ستة اشهر بثلاثة آلاف فرنك ، وهى الكريمة السمحة التى تعطى دون ان تفكر فى ما بقى لها ، ولا تقيد نفقاتها فى دفتر حساب ؟.. انها ستكسب المزيد من المال عن طريق الفنون التى تتقنها : الكتابة ، والرسم ، وزخرفة علب السعوط !

لم يبق امامها اذن غير الاهتداء الى وضع مريح لطفليها : فقررت ان تأخذ الصغيرة « سولانج » معها الى حيث تتخذ لها مسكنا صغيرا ، مع مربية ، فوق مسكنها مباشرة .. اما الصبى موريس فقد جلبت للسهر على تعليمه وتربيته عشيقها ومعلمه السابق « جول بوكواران » ، وعندئذ فقط اطمأنت الى انه سوف يكون فى يد امينة .. فبدات تحزم حقائب السفر !

وحاول اخوها هيبوليت ان يثنيها عن عزمها ، مؤكدا لها ان المبلغ الذى امكن تخصيصه لنفقاتها فى باريس لن يكفيها البتة .. فكان جوابها : « سأجرب » .. انها ستجرب الحياة البوهيمية التى اختارتها ، لا فرارا من واجباتها كربة بيت وام – فقد كانت تميل الى الطهى والغسل والحياكة وعمل المربات وزراعة الخضروات .. الخ – وانما كان عذرها الذى بررت به مسلكها فى عينى نفسها انها لن تخدم زوجا لا تحبه !

الزوج يبكى كالطفل !

واذ واجه الزوج التعس ساعة الرحيل المحتومة جاءها يبكى كالطفل .. اما هى فكانت تحلم بباريس ، بالعودة الى احضان فتاها الساحر « صاندو » الذى منت نفسها بأن تصير له خليلة ، واما ، ومدبرة منزل . انها فى كنف زوجها كازيمير قد تبلد حسها وذهنها وران عليها خمول آسن ، لكنها اخيرا ستبعث الان الى الحياة من جديد ، وتعيش .. تعيش اى تظل فى حالة ثمل ونشوة دائمين ! .. تعيش اى تسعد .. تعيش اى تكون فى جنة على الارض !

وفى ٤ يناير سنة ١٨٣١ غادرت اورور (نوهان) تستخفها فرحة الظفر بحريتها ، وان خالط الفرحة المها لفراق ابنها ! .. وبكى موريس لحظة الوداع ، لكن وعدها له باهدائه سترة « عسكرية » وقبعة محلاة بالريش الاحمر لم يلبث ان سرى عنه واعاد ابتسامة العزاء الى فمه الصغير ..

ورحلت «مدام دوديفان» الى باريس .. الى الحياة البوهيمية الموعودة التى سنراها تخلع فيها شخصيتيها السابقتين : شخصية الفتاة « اورور دوبان » ، وشخصية الزوجة « مدام دوديفان » ، كى تتقمص شخصيتها الثالثة الخالدة : شخصية الاديبة والعاشقة والملهمة للعباقرة والعظماء : « جورج صاند » !

اقرأ الفصل التالى من الكتاب فى كتابى القادم

محتويات الكتاب

مطبعة شركة الاعلانات الشرقية



ساعات
ميرامار
جنيف
الساعة السويسرية الدقيقة
MIRAMAR

كتابى

الثالث والعشرون

« .. وكانوا قد عينوا لمعاونتى فى التمريض راهبة فى زهرة شبابها كانت قد استرعت نظرى فى الزيارة السابقة للدير، وكان عسيرًا ألا تسترعيه .. فقد كان جمالها وشبابها صارخين! لكنها بدت كأنما نذرت شفتيها للصمت !.. كنت أكلمها فلا تجيب ، أسألها عن اسمها فيخيل إلى أنها لم تسمع .. وأخيرا علمت أنها تدعى « الأخت أرسولا » !

ومرة جلبت لى قدحا من القهوة ووقفت أمامى تنتظر حتى أفرغ من احتسائها كى تأخذ القدح الفارغ ، فتباطأت فى الشرب بجهد طاقتى ، كى أطيل وقفتها أمامى - وخيل إلى أنها بدورها استمرأت تباطئى ! - فأحسست وأنا انظر اليها أن عينى المتعبتين تجدان راحتهما المنشودة فى الاستلقاء على محياها ! .. وسرعان ما صارت الراحة نشوة ممتعة ، فلشد ما كانت العذراء حسناء ! .. ترى هل فهمت ما قالته لها عيناى ولم تجرؤ على النطق به شفتاى : انني شاب ، وانها فاتنة ؟ .. مرات كان يخيل إلى أنها فعلت !! »

من « قصة سان ميكيل » ، أحد كتب هذا العدد

طبع هذا الغلاف
بشركة فن الطباعة